في حنايا الذاكرة

حديث الذات وعطر الذكريات

د. عماد الدين حسين

الكتاب : في حنايا الذاكرة

المؤلف : د. عماد الدين حسين

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٢٢

رقم الإيداع : ٣٧٥٣٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978-977-493-680-7

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

د. عماد الدين حسين

في حنايا الذاكرة

حديث الذات وعطر الذكريات

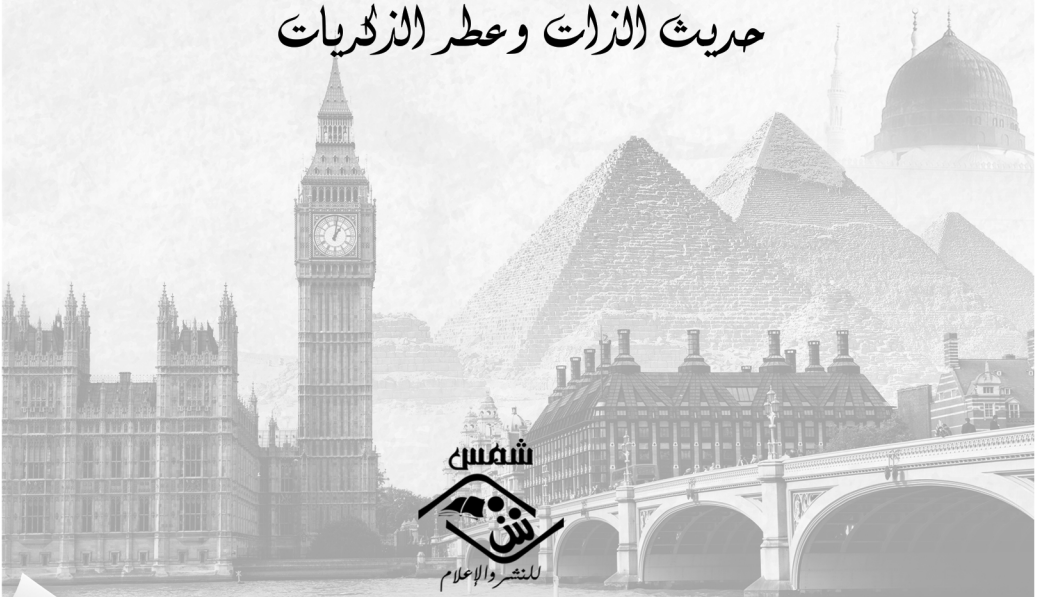

شمس
للنشر والإعلام

إهـداء

إلى قلب أمي... ملِكة الشوق المتجدِّد.

إلى روح أبي... الفارس الغائب الحاضر.

"حنايا الذاكرة" هو عنوان بحثي المستمر عنكما في دروب أسفاري وترحالي...

لولا صنيعكما في عقلي وغرسكما في قلبي ووجداني، ما بحثتُ عن الحنايا...

كنتُ صغيرًا ولا زلتُ وليدًا أمضي في رحلتي بين ضفتيِ نهر الافتقاد والاشتياق...

إليكما أهدي ما جمعتْهُ حنايا ذاكرتي...

عماد الدين حسين

المحتويات

- مُقدمة ٩
- عيد الأم... الذكرى والافتقاد ١٣
- أبتاه... تغيب لتبقى أنت الحضور ١٧
- حكايا المطارات والطائرات في زمن الكورونا ١٩
- الطبيعة وهمسات الروح... رواء واستشفاء ٢٣
- الخليج والنرويج والليل فوق المحيط ٢٧
- صلاحية هويتك وذاكرة تاريخك ٣١
- العيد... ميلاد وميعاد ٣٥
- هؤلاء علَّموني... هؤلاء ظلموني ٣٩
- صوتُ صديق... ميلادٌ جديد ٤٣
- العيد... في كوكب جديد ٤٧
- رمضان... المِداد والميعاد ٥١
- يحدث أنَّ... تأملات ووقفات ٥٥
- عِناق الثلج ودِفء الذكريات ٥٩
- الصديق الكنز ٦٣
- في حضرة عام جديد ٦٧

- الاقتراب... والاحتراق ٧١
- الساعة الأخيرة ٧٥
- الاغتراب... والاعتزال ٧٩
- أحلامنا المؤجلة... النداء والصدى ٨٣
- «الملك لير»... ثنائية العقوق والحقوق ٨٧
- ماذا حدث ؟! ٩١
- إنه المسرح سيدي ٩٥
- العيد في كَنَف أُمي ٩٩
- الوفاء والنقاء والارتقاء... ممنوع الاقتراب ١٠٣
- ثُنَائيَّة الافتقاد والاشتياق ١٠٧
- في حضرة البوح وأنين الذاكرة ١١١
- «بهاء طاهر»... عِناق مع المنفى ١١٥
- صديقي النبيل... صوتك أمل وحياة ١١٩
- أثقل من الذات ١٢٣
- أمي وصورتي والعيد ١٢٧
- أدب القاصدين ١٣١
- في جوف الكعبة ١٣٧
- المؤلف في سطور ١٤٥

مُقدمة

حين تضعك الأقدار أمام خَطْب جلَل بحجم الجائحة حَجرًا وعزلاً، وقد توقفتْ معها قاطرة الحياة لأجلٍ غير مُسمَّى منذ مارس من العام ٢٠٢٠؛ تغدو مُكبَّلاً بالوقت، تضجُّ بالصمت، تسير في حركة دؤوبة لعلَّك تلمح النور المنبعث من نهاية النفق، ترفض أن تكون عاطلاً عن الأمل برغم الجائحة، حتى لو كُنتَ ستُصْلَى بنيران تناقضاتها، تبحث عن قارب للنجاة، تتعلَّق بحبال الوصلِ لتقفز من فوق سُور العزل، مستدعيًا هُوية روحك بحروفٍ تفاؤلية، هناك تستحضر ذاتك الوليدة لتواجه أَسْرك وعُزلتك وأنين صمتك.

من هنا اِرتـأيـتُ أن أنتقي باقة من المقالات التي تربط وجداني بذكرياتي، والتي يأخذني عطرها حتى يوم مولدي في الثلاثين من يناير ١٩٦٨. تلك المقالات جاد بها قلمي وخاطري في حضرة الأسفار والافتقاد والاشتياق والاغتراب، لأضعها بين دفَّتي كتاب. فحوى الكتاب تفاصيلَ استثنائية عشتُها مع أصدقاء نُبلاء جادت عليَّ بهم الأيام، وعروضٍ مسرحيةٍ تملكتني، وأحداثٍ احتوتني قبل أن أحتويها، نُشرت في جريدتي الاتحاد والرؤية الإماراتية، والوطن المصرية، على مدار السنوات الأخيرة (٢٠١٦-٢٠٢٠). مقالات تعكس زوايا في ذاكرتي وعبقِ الأيام التي عِشتُ لحظاتها حضوريًّا أو تأمليًّا أو وجدانيًّا، لأتشاركها مع القارئ الكريم، فقد يجد في بعضها ما يغيثُ فؤاده وفي أخرى

ما يُحيي أفكاره ويسرِّي عن أحزانه، فنحن رُفقاء درب واحد مهما تعدَّدتْ الدروبُ والخُطوب.

اِخترتُ أن أستهلَّ كتابي بحديثٍ دافئٍ عن جناحيّ الأمل والإلهام في حياتي: أبي وأمي، مُستحضرًا غيضًا من فيضِ ما أغدقاه عليّ حُبًّا واحتواء، متنقّلاً فيما تبقَّى من مقالاتٍ من الأحدث إلى الأقدم، فقد يكون الهروب إلى حنايا الذاكرة وما نثرتُه على سطور الكتابِ من تأملات طوق النجاة من الجائحة.

الدكتور عماد الدين حسين

أبو ظبي - أغسطس ٢٠٢٢

عيد الأُم... الذكرى والافتقاد

٢٥ مارس ٢٠٢٠

أُماه...

رغم أن عيدك هذا العام تزامن مع ما نزل بالأرض من بلاء، وأهَـمَّ وأشغل البلاد والعباد، لكن كيف أنساه؟، وفي عيدك أستحضر عُشبَ الاشتياق وحنينَ الذكريات، وصحبةَ الأمانِ ودِفءَ الحنان، ونبعَ العطاءِ بلا حدود، مغزولاً بالخلود.

أُماه...

يا ألفَ صديقٍ يتجدَّد، وطريقَ أملٍ مُمتد، وحبيبةَ عُمرٍ كلما ذبُلتْ تتورَّد... انتزعتُ هذه الليلة صورتَكِ من سطح خيالي لأطبعها على القمر العالي، فليس من بروازٍ أجمل منه يليق بها، أمضيتُ الليل أتأمل صورتَكِ لأكتشف كم أخذتِ من عُمركِ لتضيفيه لعمري، فتكبرين وأصغر، وتشيبين وأشبُّ، ويتمكَّن منكِ الوهنُ وأصِـحُّ... حتى حين حملتني دروبُ الحياة بعيدًا عنكِ، ولحقني الكِبرُ والمشيب؛ ظلَّتْ دعواتُكِ وابتهالاتكِ وصلواتكِ الأمان في الحِلِّ والتِّرحال.

أُماه...

في كُلِّ صباحٍ ومساءٍ أستحضرُ الصوتَ والصدى، الصُّحبةَ والحكمة، الرضا واليقين، قصصَكِ عن النُّبلاء والأوفياء، ورُقي الأتقياء والأنقياء، هُمْ أنتِ، وأنتِ هم.

أُماه...

إليكِ وحَدكِ تحملُنا الأقدامُ مهما امتدَّ السفر، فلكلِ غريبٍ مآب؛ وقلبُكِ الموطِنُ الدائمُ مهما طال الإياب.

أُماه...

تُولدُ معكِ ملامحُ أمانينا، وتنكشفُ على بابكِ مواطنُ آلامنا وشِراعُ آمالنا، وتنهمرُ بِحِضنكِ دموعُنا الخرساء، وحَدكِ تملكينَ قلبَ العارفين، وبوصلةَ التائهين، وبلسمَ الشفاءِ للقلبِ الحزين، فلا يخفى عليكِ الأنينُ، وهمسُ الحنين، وحديثُ الصامتين، فكيف لا ننسجُ من دعائكِ مِعطفًا يَقينا صقيعَ السنين.

أُماه...

كيف لي أن أنظرَ إلى عينيكِ الذابلتينِ من فراقي، وقلبكِ التوَّاق لعناقي... كيف لي أن أعتذرَ عن قسوتي يومَ أخبرتُكِ أن حُلمي هو أن أطير، بينما أنت تحكينَ لي كيف أنكِ تسقين وتهتمينَ كلَّ يومٍ بشجرتي الصغيرةِ التي زرعناها معًا، وأن حُلمكِ أن تريها تزهر وتمتد جذورها في حديقة بيتنا الصغير العامر بقلبكِ الكبير... كيف لي أن أعتذرَ اليوم عن عينيَّ اللتينِ كانتا

ترقبان الطريقَ دون انتباه لعينيكِ اللتينِ حمَّلتُهما من خوف الفراق ما لا تطيقان.

أُماه...

في يومِ عيدكِ شوقي يتجاوزُ عنانَ السماءِ، وستبقى رحلتي في الحياة نهرًا من الافتقاد يسري في الأوصالِ ليعانقَ شوقًا لكِ مهما طالَ الغياب.

أُماه...

ها قد توقفتْ الطائرات وأُغلقتْ المطارات، واشتدَّ الخَطبُ وعزَّ اللقاء، لكن يبقى الرجاء في مَدَدِ السماء، ثم دعائكِ الذي به تتغير الأقدار، ويُرفع البلاء، وتتبدَّلُ الأحوال.

كُلُّ عيدٍ وأنتِ أماهُ الأمل المتجدِّدُ وشاطئُ العودة المفتقَد.

أبتاه... تغيب لتبقى أنت الحضور

٢٥ مارس ٢٠٢٠

بعدَ أكثر من عشرِ سنواتٍ مضتْ على وداعِكَ؛ لا زلتُ أسأل نفسي: هل حقًا مضيتَ أنت أم مضينا نحن؟

بعد أكثر من عشرِ سنواتٍ مضتْ على وداعِكَ؛ لا زال الافتقادُ أشدّ... لم أُخبركَ أبتاه عمَّا حدث، فقد حلَّتْ بعالَمِنا دون عالَمِكَ أحداثٌ جِسامٌ وجوائحُ ونوازلُ وزلازلُ غيَّرتْ كوكبنا، وأصبحنا غُرباءَ بعد غُربتك، وفُرقاء في دروبِ الأمل... آه أبتاه، لولا الأمل لكُنَّا والغياب بلا إياب.

مضيتَ أنت أبتاه مطمئنًا في صمت، ومضينا نحن مع حياةٍ صاخبةٍ ودروبٍ شائكةٍ وصدورٍ موغرةٍ وقلوبٍ حائرة... مضيتَ أنت أبتاه بما قدَّمتَ وعملتَ من برٍّ وطاعاتٍ ورحماتٍ ومودات بعد أن علِمتَ أن المُلتقى في ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ومضينا نحن أبتاه في إصدار جديد لعالم حمدنا الله أنك لم تشهده؛ لكان كَربُكَ عظيمًا.

نسيتُ أن أطلعكم أبتاه على قواميس جديدة صدرتْ في غيابك، فقد تمَّ السطو على مُفرداتِ النُّبلاء والحُكماء والأجِلاء

والرُّحماء وأصحاب الرسالة والقيم، وحلَّ محلهم الجُهلاء والبُلهاء وأدْعياء العِلم وفاقدو البصيرة وصانعو الحروب وأصحاب التجارة وتُجَّار القيم، والخَطبُ أشدّ ألمًا وكَمَدًا أبتاه.

أبتاه...

لم ينقطع الوصالُ معكَ وبِكَ وإليكَ قط... لم ننسَ ونحن في الرحلة قادمين أو مسافرين أو عابرين... لم ننسَ وصاياك، فقد كُنتَ وما زلتَ بوصلةَ حياة ونبراس مسيرة وتاج رأس وسِرَّ وجود وناسكًا في صومعة الأوفياء ونجمًا لامعًا في كوكبة النُّبلاء وعَلمًا لا تخطئه عين وقِبلةً يقصدها كُلُّ ضالٍ وحائرٍ ومستجير... لهذا سافرتَ أبتاه سفرك الأخير بمِداد اليقين.

حكايا المطارات والطائرات في زمن الكورونا

٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠

ما أصعبَ الحَجْر الجوي والأرضي وما ينتج عنه من حَجْرٍ ذهني ونفسي، وأنت تتَّنقل بين مطارات العالم في زمن كورونا... شاءت الأقْدارُ أن أكون شاهدَ عيان على ما حلَّ بالعالم عبْرَ مروري في ستِّ مطارات وتِسعِ رحلات...

في كل الرحلات السابقة - قبل كورونا - كُنتُ أكتب تأملاتي وذاكرتي، لكن هذه المرَّة، بعد أن تمَّ وضع سِوار الحَجْر الطبي في معصمي ضمن الإجراءات الاحترازية والوقائية بعد عودتي إلى «أبو ظبي»؛ وجدتُ حروفي تكتبني دون أن أكتبها.

يقولون: ليس من رأى كمن سمع... كان لِزامًا عليَّ مؤخرًا أن أجتاز سِت مطاراتٍ في ستة أسابيع، حيث شهدتُ حال المطارات والطائرات في زمن الجائحة؛ ولم نكن من قبل لنعبأ بحالها في ظل تسارع إيقاع الرحلات وتشعُب وجهات الطائرات.

في رحلة المغادرة، كانت أُولى وِجهات الوصول: مطار

تورنتو (كندا)، لم يتجاوز عدد المسافرين على متنها أكثر من ٢٠ مسافرًا، لتخرج بعد ١٤ ساعة طيران من أبو ظبي، وتجد المطار خاويًا على عروشه. تقوم بتعبئة بيانات الوصول إلكترونيًا وتقدِّم فحص سلبي لكورونا، ثم تدوِّن عنوان إقامتك الحجرية لمدة ١٤ يومًا، وما أن تُغادر المطار حتى تصلك رسالة إلكترونية بكافة التحذيرات عن مغادرة مكانك، والالتزام بما أقررتَه حال وصولك.

وفي العودة من «تورنتو» إلى «زيورخ» السويسرية، يتوجَّب عليك الحصول مرة أخرى على فحص سلبي من مركز كندي قبل ٩٦ ساعة، وتعتريكَ الحيرة حين تصل إلى بوابة المغادرة، فلا تجد غيرَك، وتسأل عن رُكَّاب الرحلة، فيجيبونك: كلُّهم داخلها، عددكم ١٢ راكبًا وأنت أخرهم!!، لتدخل الطائرة وتستشعر غربة أرضية جوية. وتقطع عرض المحيط لتصل «زيورخ» وتُفاجَأ بتعذر دخول سويسرا، ولولا تفهم مسؤول الجوازات بأننا فقط عابرون إلى العاصمة «فيينا» ما سمح لنا بالدخول، فدولة الشوكولاتة موصدة أبوابها أمام كل قادم لا يملك إقامة أوروبية.

وما أن تصل مطار «فيينا» متوجهًا إلى جنوبها «كلاجنفورت»؛ حتى يطل عليك مسؤول الحجز في المطار: عذرًا تمَّ إلغاء الرحلة، وعليك الانتظار إلى رحلة الغد لأن عدد الرحلات الداخلية تقلص إلى رحلة واحدة يوميًا.

لتبدأ رحلة البحث عن فندق تأوي إليه، متخوفًا من انتهاء

فاعلية فحصك بعد أن صارت هويتك ثنائية في زمن الكورونا: جواز سفرك والفحص.

وفي رحلة العودة عبر «زيـورخ» إلى «أبو ظبي»، تصلها صباحًا قادمًا من رحلتين بين «كلاجنفورت» و«فيينا»، لتُفاجأ باحتمال إلغاء الرحلة!، ويعاودك الخوف مما قد ينتظرك إن أصبحتَ حبيسًا ليوم آخر أو يومين بلا فحصٍ سارٍ. لكن جذوة الأمل لا تنطفئ، ومداد السماء لا ينقطع... الرحلة ستغادر إلى «أبو ظبي» رغم قلّة عدد الركاب الذين لم يتجاوزوا ١٦ راكبًا!

وبعد انتهاء إجراءات وصولك ترتدي «الأسورة» الفضية، وتدرك يقينًا أنك ضيفٌ أسيرٌ في بيتك لمدة ١٤ يومًا، لا تبارحه.

تلك شجون وشؤون المسافر في زمن الكورونا.

الطبيعة وهمسات الروح... رواء واستشفاء

٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠

في كل عام أو أقصاها عامين، أراجع مؤشر العافية الذهنية والعقلية والجسدية... بعد عدة جولات في مراكز صحية عالمية على مدار سنوات؛ استقر بي المقام في هذا المركز (مركز عالمي يقع في أقصى جنوب النمسا، على الحدود مع سلوفينيا وإيطاليا)... هو ليس مركز صحي بالمعنى التقليدي، ولكنه منظومة بشرية تبحث عنك وفيك وبك ولك، عن كل ما يعيد لك الصحة والراحة والصفاء للجسد والعقل والروح، ورأب ما تصدع؛ تعاود حياتك من جديد وتبحر نحو غاياتك بعد أن وضعتَ جانبًا كل ما لحق بك من ملوثات ومشاغبات وتحديات عبْرَ ما فات من سنوات...

تلك سطوري في اليوم الأخير بعد أن أمضيتُ أسبوعين كاملين في هذا المركز العالمي وسط أيام الكورونا في أكتوبر من العام ٢٠٢٠.

فرضَ إيقاع حياتنا السريع والمتخم بالمسؤوليات والمهمات والضغوطات، أن يستوقفك جسدك في منتصف الطريق ليُلقي

بكل أثقاله، مناديًا بحقوقه عليك، مستنجدًا منك بك. إنها ثورة الجسد التي تُجبرك وتستنفرك نحو الراحة والاستشفاء والاسترخاء، فتحزم أمتعتك على درب السفر رغم وعثائه في زمن كورونا، مُيمِّمًا نحو المصالحة الصحية والصفاء الذهني علَّك تستردَّ بعضًا من عافيتك ونبض روحك الخافت.

كانت الوجهة نحو جنوب النمسا، حيث المركز الصحي في منطقة «ماريا وورث Mariaworth» المطلُّ على بحيرة «وورثرسي Worthersee» في المقاطعة النمساوية التاسعة «كارينثيا Carinthia»، التي وصلتُها بعد رحلة مكوكية بين قارتين، وعبْر أربعة مُدن من «تورونتو» الكندية، و»زيوريخ» السويسرية، وصولاً إلى «فيينا» ثم «كلاجنفورت Klagenfurt».

برغمِ طول الطريق والإجراءات الاحترازية في المطارات، إلا أنَّ احتضان الطبيعة لك يُهوِّن المسافات، وهي تهمس لك وتعِدُك بأن خُضرتها الممتدة ومياه بحيرتها الرقراقة ستبتلع كُلَّ ما أثقلك وأنهكك وأضجرك في عواصم الإسمنت والصخب.

تزامنتْ رحلتي مع طيِّ الصيف لأخر صفحاته وبداية خريفٍ لطيفٍ يُداري شتاءً يتبختر على خجل.

ما أن تحُطَّ رِحالك حتى تستسلم لأيادٍ ماهرة ومبدعة في صناعتها، تصول وتجول بمعيتهم في الفحوصات الطبية

والتدريبات البدنية، والجلسات النفسية، ومحاضرات التغذية وجودة الحياة؛ تُهوِّنها جولاتك بحضن الطبيعة الغناء متنزِّهًا على ضفاف البحيرة الفيروزية الصافية قبل أن يُحيلها الشتاء لصفحة من الجليد. هناك، يصفو ذهنك، ويجلو فكرك، وتزفر روحك شوائب وضجيج المدن الهادر بين ترانيم خرير الماء وهديل الطير وحفيف الشجر، ممتنًّا لمن صنع هذا النموذج الحياتي القائم على الاعتناء بالإنسان والمكان، بعد أن وهبهم الخالق نعمة الخُضرة، ورقراق المياه، وجمال الأرواح.

تتعلم الطريقة الصينية في (شُرب الطعام وأكل الماء)، حيث تمضغ الطعام وتحتفظ بالماء قبل أن يشُقَّا طريقهما لمعدتك لأطول وقت ممكن. أطباق طعامك مقادير معلومة تناسب جسدك، ويختفي من قائمتك الشاي والقهوة والأرز واللحوم والفواكه وغيرها، فالهدف إعادة تأهيل جهازك الهضمي وِفق فلسفة خطَّها خبيرٌ منذ أكثر من مئة عام.

مع انتهاء الرحلة، عليك أن تتذكر أن السفر لم يعد موعد إقلاع ووصول، ولكن فحوصات وترقُّب واحترازات وحَجْر. إلا أن عطرها يظل حاضرًا بعد أيام قضيتها في حضرة الطبيعة وصفاء الماء والسماء، وهمسات الروح تتجدَّد وتصفو وتتألق مع التوازن الصحي والذهني والطاقة الإيجابية.

الخليج والنرويج والليل فوق المحيط

٢٤ سبتمبر ٢٠٢٠

ما أصعب أن يتشتت شغف الرحلة بالكمامات والإجراءات الاحترازية، وأن يكون السفر عبْر بساط الريح إقامة جبرية جوية وأرضية، لتزاحم تلك الإجراءات تأملات الأسفار والترحال، فتطير الكلمات طليقة تحلّق فوق أَسْرٍ اِخترتَه جَبْرًا ولم تأتِ له طَوعًا...

تلك حروفي مع رحلتي الأولى في زمن كورونا.

إنها المرة الأولى التي أعاود فيها أسفاري في ظل الجائحة... تجربة استثنائية أن تمتطي بساط الريح في زمن الكورونا وما فرضتْه من واقعٍ جديد. تبدأ رحلتك مع الإجراءات الاحترازية من مطار المغادرة، وتستشعر الاستنفار غير العادي للعاملين الذين أُضيف إلى مهامهم وأعمالهم عبءٌ على أعبائهم.

أخذتُ مقعدي في الطائرة المتجهة من «أبو ظبي» إلى «تورونتو» الكندية بعد سلسلة إجراءات، أهمها خلوك من

الفيروس أو حتى أعراضه، ومسافات متباعدة بين المقاعد.

قُبيل الإقلاع، يلفت نظرك مدرج المطار، حيث تقبع عشرات الطائرات بعد أن أقعدتْها الجائحة، وطمرتْ معالم الحياة أمامها، وباتت تنتظر يقين الغد، فعسى الكرب الذي أمستْ فيه يكون وراءه فرجٌ قريب، لتعاود شقَّ عباب السحاب نحو وجهاتها.

المضيفات أشبه بممرضات يتنقلنَّ بين الأسِرَّة بحذرٍ أكثر مما يقدمنَّ من خدمات الضيافة... حركاتك مرصودة، وسكناتك محسوبة، تجلس في مقعدك منزويًا بعيدًا وراء قناع على وجهك لن يبارحك طوال الرحلة، لا تبدي امتعاضًا ولا ضيقًا... لقد تبدَّلتْ معالم السفر كما تبدَّلتْ معالم الحياة.

أخذني سُباتٌ عميق، فقضاء ١٤ ساعة معلَّقًا بين السماء والأرض يتطلب منك قوة التحمُّل وكثيرًا من التصبُّر.

جاءت استفاقتي من النوم على شاشة تعرض خط سير الطائرة، فأدركتُ أننا فوق النرويج مودِّعين تخوم أوروبا، ومستقبلين المحيط عند منتصف الليل، لينبلج الفجر ونحن فوق هذا المحيط الغامض المهيب، وصولاً إلى «تورونتو» مع ظُهر اليوم التالي.

تُزَاحِمُكَ ذكرياتك مع تأملاتك عن بدء الرحلة من الخليج العربي لتُحلِّق فوق القارة العجوز أوروبا، ولتعبر المحيط من

مشارف النرويج، مستعرضًا كم مرة قطعتَ هذا المحيط ذهابًا وإيابًا لسنوات من الترحال وارتياد الآفاق، ولكن هذه المرة للسفر طَعمٌ مختلف بعد أن أضحى نظامًا صارمًا من التحوط والقيود، أضاف لوعثاء الطريق عبئًا ثقيلاً.

تستشعر في مطار الوصول وكأنك نزلتَ بمطار عسكري، لا تكاد تجد إلا قليلاً من المسافرين، تمرُّ عبْرَ فحوصات وإجراءات السلامة، لتهرول باحثًا عن ذاتك، هل حقًا كنتَ مسافرًا، أم كنت في حظر أرضي جوي، وينتظرك حظر ثالث في بيتك؟!

غيَّرتْ الجائحة وجه العالم، لكننا سنبقى على أملٍ أن يصبح السفر مرة أخرى صديق القصص والبدايات الجديدة، ونسترجع بهجة الحِلِّ والترحال بلا حظر أو أثقال، ويعاودنا سحر التأمل ونحن بين السحاب.

صلاحية هويتك و ذاكرة تاريخك

١٧ سبتمبر ٢٠٢٠

عِلى سبيل التمنِّي، لو أننا نتلقن منذ الصغر ممكنات الاكتفاء وقوة الاستكفاء كتلقين الأبجدية؛ فنتعلم ألا نعاتب، ألا نطالب، وألا نرجو الكثير ولا حتى القليل لأن الانتظار ثقيل ... فقط نعتلي عرش الاكتفاء ونرتقي... وكلما ارتقينا استرحنا وأرحنا...

تأملت هويتنا في مجتمعاتنا فوجدت الحال يكتب نفسه بحروف قلمي.

هل أتى علينا حينٌ من الدَّهرِ غُيِّبتْ فيه قيمٌ كانت حليفة أعرافنا وتراثنا المجتمعيِّ العريق، فكان للكبير كلمته، وللعالِم مكانته، وللغائب محبَّته حتى يعود... وفي بضع سنوات عِجاف، هبَّتْ رياحٌ عاتية، حملتْ سمومًا فكرية عصفتْ بالعقول البشرية، أحالت القيم الراسخة إلى تقاليد غائبة متقادمة، وجعلت مقامك بقدر ما تُحقِّق من مَجْدٍ لحظي، وإبداعٍ زائفٍ أمام شاشات النِّفاق، لتتأرجح قيمة تاريخك صعودًا ونزولاً مثل

سهم التداول باليوم الواحد، وتحدِّد صلاحيتك مثل وجبة سريعة قيمتها ساعات!

سألني أحد الذين لُدغوا بثعبان العقوق، وقرَّر الاكتفاء من الرحلة بالإياب في انتظار تذكرة الغياب الأبدي، التي بات يرتقبها بمُقلٍ تملأُها العَبَراتُ والزُهدُ فيما هو آت، سألني والألمُ يعتصره: عجزتُ أن أفهم عقوق الأقربين وقسوة المحيطين، راجعتُ سِفرَ رسالتي ودفاترَ حياتي، فوجدتُني تناسيتُ في رحلتي آمالي وأحلامي ليكون للآخر من جهدي وعقلي ومالي ما استطعتُ أن أجود بكل إيثار وإنكار للذات، واليوم أقفُ في عَراء العُقوق وصقيعِ الجُحود ليتصدَّر اسمي قائمة النسيان والإهمال حتى يعجز اللسان عن وصف ما آلَ إليه الحال.

حاولتُ أن أهوِّن عليه سلوكَ بشَرِ الإصدار الجديد، ونسخة الإنسان في زمن الجوائح والفِتن، وأنه لن يغيَّر العالَم من حوله لأن ثنائية «الحُقوق والعُقوق» هي قصة الأمس واليوم والغد، ولكنها تتصدَّر المشهد الآن، مؤكدًا له: ارحل بذاتك لميناء سلامٍ بعيدًا عن خيبات التوقعات، لا تطالب ولا تعاتب، واجعل من صمتك أقوى صرخة في عالم بلا معالم أشبه بحديث الطُرشان، قد تكون صديقي أخطأتَ بانتظار الجزاء وأَجْرِ العطاء من البشر وليس من ربِّ البشر.

قاطعني محتدًّا متسائلاً عن منطق الاكتفاء والاستغناء، والركون لراحة البال وقائمة الإهمال...

قلتُ: يا رفيق الدرب، لا يمكن للطائر الجريح التحليق، وكلما أثقلتْك همومك، وأوجعتْك الرحلة الأرضية، اِرتقِ نحو المراتب السماوية؛ هناك المُرتجى والراحة والملتقى.

ما أقسى أن يأتيك من يشتكي انتهاء صلاحية هويته وطمس صفحات تاريخه من القريب قبل الغريب، ليمضي فيما تبقى وهو يصارع كل إصباح بتقديم طلب جديد لإثبات وجوده وحضوره، ودفع رسوم تجديد هويته وتحديث تاريخه.

إلى المُطمئنة نفوسهم والراقية عقولهم، المرابطين عند ثغور الاكتفاء والاستغناء: العالم بات يقف عند باب حكمتكم ليستلهم منكم الدرس الأخير: لا تنتظر عدالة أهل الأرض واِرتقِ ما استطعت!

العيد... ميلاد وميعاد

٢٩ يوليو ٢٠٢٠

في كلِّ عيد؛ كنتُ دومًا في حَضْرة من أُحب من أهل وأحباب وأصدقاء... وأتى هذا العيد في حضرة كورونا ومعيتها دون أن نسعى لها، لسان حالنا يقول: نشتاق للقيا لكن نتباعد لنحيا... وجدتُه عيدًا للذات واستحضار الذكريات، فهي الداء والدواء حين يحال بينك وبين من تحبهم في الحياة.

يقيني هو أن القلب يصنع في كل عيد عيده.

مخطئ من يظن أن العيد محدودٌ فحسب بموعد معلوم وزمان موقوت، فالجائحة علَّمتنا أن كلَّ يوم يمرُّ علينا ونحن في عافية وأمان وسلام، فذلك هو ميقات عيدنا المتجدِّد؛ فلا تنسَ الاحتفاء كل يوم بالشكر والدعاء بدوام النِّعم... اليوم ونحن نقترب من ساحة العيد الرحبة، نستطلع عمق المعاني، وعظمة الباري.

العيد استحضارٌ لذكرى الرحلة الإبراهيمية نحو المراتب السماوية، نادى بيقينٍ؛ فلبَّتْ النفوس النداء، وقصدتْ الحَرمَ من كل فَجٍّ، لتُقيم لله مناسكَ الحج، فهل نحن قادرون على أن نعيَ رسالة من أقامها عملاً، ولبَّاها قلبًا؟

العيد ميلادٌ للسعادة يتجدَّد، ويقينٌ بالرضا يتمجَّد، ومسارٌ نحو نقاء الروح وإشراقها بنور الاكتفاء والاستغناء بعد أن أدركتْ رواء القناعة.

العيد عَودٌ لموطن الذات والذكريات، وحنينٌ لزمنٍ فات، نستلهم منه معين القلوب النقية، والوجوه الباسمة، والأنفس الراضية... ترتسم تفاصيله في مخيلتنا، لتحيلنا إلى زمن الصفاء والنقاء...

سيظل العيد سفيرًا للسعادة، وستظل عيدية العيد وملابس العيد وطقوس العيد وأقارب العيد ومائدة العيد؛ قصةَ فرحٍ لا تغيب بين أبوابٍ تُطْرق، وألسُنٍ بالتكبير تلهج، تسطر صفحاتٍ لا تُنسى... فهل عزيمتنا اليوم قادرة على صنع فرحتنا رغم الغياب والبعاد؟

العيد دعوةٌ لاستذكار النِّعم واستشعار بهجة الحياة، إنه موعد التراحم والعطاء، دعوةٌ يتميز فيها أصحاب اليقين ممن أتمُّوا قراءة جدارية الكون، فأدركوا أن الحياة ماضية مهما تفرَّقتْ الدروب وتعدَّدت الخُطوب...

العيد تذكرةٌ بأننا لا نزال نقوى على صناعة الأفراح، وتحمُّل الأتراح، وبأن الأمل اختيار، والصبر إيمان، وتقلبات الزمن سمة أبدية يهزمها اليقين بعد أن بهتت الألوان في عيون كثيرين جرَّاء ما أصاب العالم، ففي العيد نطرق باب الرجاء، ونزمِّل أوجاعنا بقُرب الفرج، فلولا فسحة الأمل ما تحمَّلنا الألم... تلك خلاصة الرحلة.

العيد ميعادٌ سيحلُّ على البعض هذا العام ممن دُثِّروا بالأبيض، ونالوا شرف الوقوف على جبل الرحمة، ليزيلوا ما تراكم على قلوبهم من رانٍ وأقفال، فلنكن معهم بأرواحنا، لنغسلها من كدر تفاصيل أيامنا، فلنحظَ بخلوة نعيد فيها نسج أطراف حكاية جديدة بعهد ووعد وميعاد، عهدٌ بالعودة يزدان بهجة، ووعدٌ بالخير يزهر أملاً، وميعادٌ مع السعادة يَشعُّ يقينًا.

العيد ميلادٌ وميعادٌ وتذكِرةٌ، فلا تنسوا الإفساح له في قلوبكم وأرواحكم قبل معايدتكم لرفقاء كوكبكم بحروف كلماتكم...

كل عيد وأنتم العيد.

هؤلاء علَّموني... هؤلاء ظلموني

١ يوليو ٢٠٢٠

حيرةٌ لا تنتهي، ودهشةٌ ليس لها حدود، أمام أولئك الذين يسيرون في الأرض يحملون أثقال ذكريات وخيبات الماضي، وآلامًا أكثر من الآمال... تشفق عليهم حين يتحِدُون مع ذكرياتهم المؤلمة فلا ينتبهون لجمال وردة على طاولة، ولا لنكهة القهوة في مقهى هرعت إليه من أمطار الشتاء في مدن أوروبا، ولا لطعام شهي أو حديث جميل بهي، فقد وقعوا أسرى لخيبات ماضيهم، وينتهي بهم الأمر في مربع اللا تجاوز، واللا تغاضي واللا تسامح ف اللا حياة...

كتبتُ سطوري هذه لمن يسعى لتخفيف أوزان وأثقال الماضي وذكرياته المؤلمة، ليتذوق طعم الحياة ويرى جمالها؛ وليس فحسب أشواكها.

يبدو أن الجائحة تجنح بالإنسان لصناديقه المغلقة، مُنقِّبًا في دفاتره القديمة، مرتحلاً في كتاب حياته، متأملاً شريط ذكرياته، ومستحضرًا ما فات، تستوقفه الملمَّات، وندوبٌ عالقةٌ في الذات، لطالما تذمَّر من ضجيج المُدن، فإذا به رهن

ضجيج أفكاره في حظر قسري فرضه فيروس أصغر من أن يُرَى بالعين المجردة «كوفيد-١٩»، تنازعه الخلوات وتقض مضجعه الذكريات، المؤلم منها والمبهج، ومن قال: إن المبهج منها مدعاة للسعادة، وعلام نتحرق كلما راودتنا إذن؟

تأملتُ طويلاً رسالة صديق وصلتني، يسرد فيها فكرة مشروع كتاب عن شخصيات التقى بهم في مسيرة حياته، موزِّعًا فئاتهم على فصلين، الأول بعنوان: «هؤلاء علّموني»، ويرصد بحروف الامتنان والعرفان كيف أضاء هؤلاء دربه وأناروا سبيله... والثاني انتقى له عنوان: «هؤلاء ظلموني»، ليوثِّق ما قاساه خلال مسيرة حياته من ظُلم القريب والبعيد.

بادرتُ الصديق: ما بالك تعلِّق مشنقة الذكريات المؤلمة وتشدُّ وثاقها على رقبتك؟ أليس هذا انتحار إنساني؟... يا صديقي: كيف تمضي حياتك وأنت تحمل على كتفيك أثقالاً سِقاما؟ «نيلسون مانديلا» مكث سبعة وعشرين عامًا بمحبسه، وحين أُطلِق سراحه سألوه ما أنت فاعل؟ قال: إن تذكرتُ من ظلموني، فأنا ما زلتُ أسيرهم!

وما مشروع الصديق إلا مرآة تعكس خبايا النفس، من صعوبة التجاوز، وثقل التسامح، ونبذ التعايش، وخصومة الذات، وافتقار اليقين بعِوضٍ سيغدقه علينا من بيده مقاليد السماوات والأرض.

وفي ذات أمسية دافئة، هاتفني لأكثر من ساعة صديق آخر صاحب روح شفافة وقلب عابر للمحيطات، وناسك في مِحراب التسامح، وعاشق للحياة القوس قزحية، بادرتُه بسؤال: كيف قطعتَ شوط حياتك بحلوها ومُرِّها؟ فإذا به يروي بإمتاع عمن ضاقوا ذَرعًا بإنجازاته واعترضوا نجاحاته بمِعول الهدم، وكأنه يسرد ملحمة عشق بين بطلٍ رومانسي ووحوش كاسرة؛ تجري وقائعها بأدغال الأمازون، ليباغتني بخاتمة غير متوقعة لروايته، فلا صديقنا انتصر، ولا كبَّل أعداءه بويلات الهزيمة، وإنما قال: رحلوا عن عالمي ومضيتُ أنا برحلتي حالمًا، وما زلت باسمًا عاشقًا!

فالذات المثقلة والأسيرة لمواقف الخذلان العابرة، لن تنال من محبسها سوى الاحتراق الداخلي وملامح مُشوَّهة، ولن تجد للخلاص سبيلاً إلا بالتحرُّر من أغلال وذكرى المعارك المنصرمة.

تُعلِّمنا الجائحة وخلوتها أنَّ تكبُّد الذات لأحمال حروب الماضي مثقِلة متعِبة، وأن المتسامحين المتغافلين المترفعين وحدهم المكتفون في راحة بال وخير حال.

صوتُ صديق... ميلادٌ جديد

١٧ يونيو ٢٠٢٠

رنينٌ يطرق باب هاتفك، تجيب، فتسمع صوتًا من بعيد... بعيد بُعدَ أعوامٍ عديدة مرَّت، وقريب قُربَ حنين القلب وذكرياته... إنه صوت مُعلمك ومديرك وأستاذك الذي تتلمذتَ على يديه حين كنتَ غصن أخضر في شجرة الحياة... حينها يحتويك شعور لا يُوصف، مزيج مشاعر تدركها فقط حين تتربع على خمسينيات العمر وتعيش تلك اللحظة، شعور أطلق أناملي حينها لتروي هذه السطور.

ميلادك ليس تلك الشهادة التي تحمل زمانك ومكانك، وليست الأوطان تلك التي نُولد على أرضها وتتفتحُ عيونُنا على سمائها ونرتشفُ من مائها، فقد يمرُّ بك يومٌ خارج وطنك، تستشعرُ فيه أنك تُولدُ من جديد، وبأثر رجعي لزمنٍ مديد.

أثناء تهاني العيد، ورسائل ذوي الرَّحِم وأصدقاء ورُفقاء باعدتْ الجائحة بيننا وبين اللقاء بهم؛ هاتفني أحدُ رموز الزمن الجميل، قائدٌ حازَ السبقَ عطاءً ونزاهةً وتمكينًا، يحمل بين ضلوعه رِقَّة

تشعُّ على قَسَمات وجهه، تبعثُ فيمن حوله الاطمئنان الدافع إلى التحدي والإنجاز.

المُعلم الصديق أعادني إلى مواقف مضتْ من رُبع قرن، فرحةٌ غامرة تخيلتُ معها أن الأمر حلم جميل أطلَّ من ذاكرة النسيان، أو حلم يقظة صاغه الحنين إلى ذكريات زمنٍ فات.

على مدى ما يقرب من ساعة، ذكَّرني المعلمُ القدوة بتحديات وسِجَالات اختزنتْها الذاكرة، وأناسٍ تقاسموا معنا مساحات الزمن في تلك السنين، توقف معي عند ناصية موقفٍ لا يزال ماثلاً أمام ناظريه بكل تفاصيله، كأنه بالأمس القريب، حين منح معلمُنا أحدَ مرؤوسيه تقدير «ممتاز»، فجاءه اللوم من ربّان سفينة العمل، وقد عقد حاجبيه غضبًا: كيف لك أن تقيِّم موظفًا لم يحصل على الثانوية بهذا التقدير؟ فأجابه المعلمُ القدوة بعفوية وموضوعية: يا سيدي لو كان هناك تقدير أعلى من «ممتاز» لفعلتُ، ثم استأنف كلامه بثقةٍ لا تتخذّل، وأنَفَةٍ لا تتبدّل: التقدير جاء بناء على نتائج وإنجازات، ولا علاقة له بالشهادات... وأصرَّ على ما أقرَّه من تقدير خطَّه بمِداد الضمير، فكان يدافع عن موظفيه حتى لو كلَّفه الأمر أن يصير صديقًا لجدران بيته، أو على أقل تقدير أن يُواجَه بنيران خصوم الإبداع والابتكار.

رغم بساطة الأمور، فإنها تكشف المستور، فالمعلمُ يدافع عن قضية الأمس واليوم التي نخرتْ في عظام بعض المجتمعات المهنية، وأوهنت قواها: إن كنتُ لا أمتلكُ حرية تقييم أداء العاملين معي، فلا تسألني عن نتائج إدارتي، فمن لا يملكُ مِفتاحَ بيته لا تسأله عن إدارته.

يمضي الوقت مع الذكريات بدون أن نشعر، ونستحضر معًا سنوات بناء الذات واكتساب المهارات والجدارات، يتحدث المعلم بلسان إخلاصه المعهود، وأنا أصغي إليه... هامسًا: يا صديقي الأمين، ما زالت القضايا التي حاربت من أجلها حاضرة رغم مرور السنين، تطحن برحاها كل المتميزين المبدعين.

العيد... في كوكب جديد

٢٧ مايو ٢٠٢٠

ما أصعبَ أن تتحول الأيام إلى أَسْر، وتأتي الأعياد ونحن في ذلك الأَسْر... للمرة الأولى استشعر في حلقي الغصة... للمرة الأولى، خلال الأعياد أشعر أننا في عالم آخر... صعب... مُرّ...

كورونا لم تغيِّر العالم فحسب، بل غيَّرتْ أرواح وعقول ومعاني الحياة... كلُي أمل أن نكتب عن هذه الفترة بعد تجاوزها...

كم اشتقت في هذه اللحظة للعيد والحرية معًا.

حلَّ العيدُ ونحن بعيدون عن كل ما اعتادتْه النفس من تواصلٍ وتبادلٍ للتهاني والتبريكات لقدوم ضيفٍ طالما تهيأنا لمجيئه، ونحن بكامل زينتنا، وقد اعتلتْ صنوف الطعام موائدنا، نتوقُ لصدى بهجة أطفالنا، ونترقب خُطى أحبتنا وأقاربنا.

حلَّ العيدُ، وقد تحجرتْ أبوابنا المقفلة لقلة طَرقات زائريها، وانطفأ وهج بهجة أطفالنا... ساحاتٌ مقفرة بلا مصلين،

ومساجدُ أُوصِدت أبوابُها خوفًا على المرتادين... اعتزلنا كل شيء، سعيًا للبقاء في ظل جائحة كورونا التي أرغمتنا على العيش خلف جدران الحَجْر، ننسجُ من خيوط النور بُشرى تكون شِراعَ أملنا وسط أمواجٍ تقذف بنا كلَّ لحظة إلى شواطئ المجهول طلبًا للنجاة.

حلَّ العيدُ، وما انفكتْ أرجاءُ العالم تنزف بين حروب الرُّحماء وقتال الرُّفقاء، وتناحُر التُّجار المتجبِّرين، وصراع الساسة الواهمين، وكأنَّ مخلوقًا مجهريًا ليس عدوًا كافيًا لحشد صنوف العدة والعتاد...

أليس عجيبًا أن يُولي البشر مدبرين عن عدوهم الحقيقي، مواصلين العَداء لشُركاء الإنسانية، بعد أن عجزتْ أمامه عقول العلماء ومهارة الأطباء، ليعيش بنو البشر ثورة ذات طابع مختلف، هدفها البقاء.

حلَّ العيدُ بعد ليالٍ عجاف عصفت بنا بين جدران العزْل والخوف، والترقب والرجاء، والأمل وتحدِّي البقاء، وقد أزف الرحيل لكل من خسر معركته أمام عدو خفيٍّ، جفَّف فينا كلَّ أشكال الحياة التي تعوّدنا عليها، ليرغمنا على واقعٍ يقتلُ فينا كلَّ أمل، ليحيله حاضرًا لا نملك بعدُ الفكاك منه، نقبضُ على أنفسنا كوليد احتمى بحضن أمه.

حلَّ العيدُ وقد تغيَّرتْ حُلَّتُه، وانـزوتْ بهجتُه، واضمحلتْ فرحتُه، التي سنتشاركها عبر الشاشات والسماعات، والصور والعِبارات، فتبدَّل يومُنا من فرحةٍ مزهوّة إلى آمالٍ مرجوّة.

حلَّ العيدُ، والدنيا تعجُّ أنينًا ونواحًا، وتصدحُ ألمًا وصراخًا، وقد حصدتْ المنايا آلاف الأرواح، وخلَّفتْ مَن نجوا على هامش رحيلٍ معنون بعدوٍ عنيد بالغ الدهاء، وقد وجَّه سلاحه لرئة الحياة فينا، مواصلين معركة البقاء، والتحدي وافتقاد اللقاء... وصمت هامس: هل نحن ما زلنا نحن؟ أم نحن الماضية مضت، ونحن الحاضرة حضرت في كوكب جديد هويته: ابتعدوا تصحوا، وتباعدوا تنجوا، وعنوان البقاء: اتركوا مسافة كافية بينكم وبين الفناء؟

كم نحتاج إلى مُمكناتٍ لنتعامل مع النسخة الجديدة مِن إصدار حياتنا؟ فهل نحن ما نزال نحن، أم أصابنا ما أصابنا، وقد تبدَّلتْ ملامحنا لنكون نحن، ولكن بإصدارٍ لا يُشبهنا؟

رمضان... المداد والميعاد

٢٢ أبريل ٢٠٢٠

مع كل رمضان كنت أحظى بأيامٍ معدوداتٍ في المدينة المنورة و«طيبة» الطيِّبة، بجوار خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم... في هذا العام شعرتُ كأني فقدتُ الروح والبوصلة واستبقيتُ الأماني حاضرة أن تعاود الطائرات التحليق في الغد القريب لأعاود الوصول إلى حيث الوصل والوصال، «طيبة»...

قد لا يمنحك نبض قلمك أحيانًا كلماتٍ تترجم ما يحتويه صدرك؛ فكانت تلك الحروف مبلغ جهدي وأنا أتأمل حالنا وقد حلَّ رمضان والصيام دون حُسن الجوار...ويبقى الرجاء ولن ينقطع الأمل.

ساعاتٌ تفصلنا عن محطةٍ كمْ نحن أحوجُ إليها، وكمْ نحن لها بشوقٍ مرتقبون بقلوبٍ أوجعتْها الخُطوب، وأتعبتْها الدُّروب، وحِيل بينها وبين أن تغادر البيوت، شهر رمضان نزهةُ الروح المشتاقة، ووطنُ القلوب المتعبة، قِبْلةُ الأماني التائهة، وبستانُ الدعوات، وبوابةُ القاصدين المتضرعين.

يأتي رمضان هذا العالم ونحن لسنا كما كُنا، لحكمة اختزنها علام الغيوب، يأتي رمضان هذا العام والنفس مليئة بالشجون بين فقدٍ وافتقاد، وعزلٍ وانكسار، وتباعدٍ اجتماعي فرضتْهُ الظروف على الجميع، وأحوال وأمور مسكوت عنها في صمت الهامسين وأنين الصامتين بين تأمل وتدبُّر وتفكُّر.

يا رمضان: جِئتَ في موعدك، ونحن بين مسعى الدعاء والرجاء مرابطون، علَّنا بك ومعك وفي حضرتك يغمرنا يقين المنتظرين وسكينة السالكين، ونستشرف برحماتك وغفرانك العبور الآمن.

يا رمضان: هذا العام ستختلف طقوسنا التي اعتدناها، سيغيب السهر والسمر مع الأحبة والأصحاب، علَّنا بك ومعك وفي حضرتك نُرزق تجليات الخلوة فيُزيح عنا ربُّ العزة الكرب والغمة.

يا رمضان: سنغيبُ عن صلاة التراويح في جماعة وقد حُبِستْ الخُطى عن المساجد لقدرٍ لا نعلمه، علَّنَا بك ومعك وفي حضرتك تُبارَك صلواتنا والأذكار، وتُقبل ابتهالاتنا في الأسحار، ويُجمع شتات قلوب أحبتنا ومن فقدنا وصالهم، وشوقنا لا ينتهي نحو لقائهم.

يا رمضان: المآذن تنادي، والأقدام لا تحملنا لعِظم الخطب، علَّك تملؤنا بمنازل عامرة نابضة آمنة ذاكرة مرتلة، وقلوب بالدعاء

محتسبة مطمئنة، علَّنا بك ومعك وفي حضرتك تجري مدامعنا رجاء أن يعيدنا الرحيم، ويأخذ بنواصينا، فمن غيره يُرجى ومن دونه يُدعى؟

يا رمضان: لن نسعد بأحبة كثيرين على مائدة الفطور، وستغيب كل طقوس ضيافتنا من كريم بركتك، علَّنا بك ومعك وفي حضرتك تصدح قلوبنا بالدعاء لشركائنا في الإنسانية والبشرية ونحن في حضرة الغياب.

يا رمضان: كأن البلاء آثر انتظارك، علَّنا بك ومعك وفي حضرتك نعيش لياليك بقلوب وجلة ذاكرة، وعقول قارئة متدبرة، فننهل من بركاتك نهل الظمآن، ونعود عودة الشارد نحو مِداد السماء.

يا رمضان: علَّنا بك ومعك وفي حضرتك، يرفع ربُّ السماء البلاء، ويرحم البلاد والعباد، وينقشع الغيم وينبلج فجر الليل البهيم.

ربما طقوس رمضان هذا العام ستتغير، لكنه لا يزال شهر المدد والمداد، الخيرات والنفحات، الموعد والميعاد، التجليات والرحمات، طموح تجلّي رضا الرحمن والعتق من النيران.

«يَحدث أنَّ»... تأمُلات ووقفات

١٥ أبريل ٢٠٢٠

دومًا فكرة الحضور والغياب في ترياق أفكاري وحروفي... قد أكون تأثرتُ بالشاعر الاستثنائي «محمود درويش» رحمه الله... وقد تكون كثرة أسفاري وترحالي بين المدن والمطارات والقارات أثَّرتْ في وجداني... فدومًا أقف في المنتصف وأتأمل... أحيانًا أعيش ساعات كاملة في حضرة الغياب في عوالم التفكُر فيما فات وفيما هو آت...

فيما يلي خلجات نفسي أبوح بها في إحدى تأملاتي..

يحدث أن تتلقفك دوَّامة الزمن والتحديات، والآمال والطموحات، ولا تُخلّي سبيلك حتى تصبح قابَ قوسَين أو أدنى من واحة الغروب... آنذاك ستسأل ذاتك المجهدة: أحقًا تلك واحة الغروب؟ أم استراحة محارب يترقب بشوقٍ شروقًا قادمًا؟

يحدث أن تفرض عليك الحياة الوقوف هُنيهة في المنتصف قسرًا وجبرًا، مكاشفًا ذاتك أمام مرآتك، متأملاً ما أحدثته الأيامُ بملامحك، مستحضرًا عُصارة الرحلة وخلاصة المطاف، سابرًا

أغوار الفؤاد، مقتفيًا أثر الوهن فيكَ لتعيد ترميمه، واقفًا على نواصي الأمل رغم ما يحتويك من ألم، مكافئًا ذاتك بما خلَّفته التجارب فيك من مواطنَ قوة، ففي مرآتك التي استوقفتْك يكمُن سِرُّك المكنون... آنذاك ستحدِّثها بصوتٍ خافت: لَأن تأتي لحظة المكاشفة لذاتك جبرًا، خيرٌ من ألاَّ تأتي طوعًا!

يحدث أن تأخذك الأقدارُ بلا موعد إلى حيث شاءت، وتتواصل عن بُعد مع نُبلاءٍ جادَ عليك بهم الزمن على قِلَّتهم، رُفقاء دربٍ كانوا لك ومعك على الأمل والألم متحدون، مرابطون على ثغور النقاء ونواصي الوفاء وشواطئ الاكتفاء، لتولد على أيديهم من جديد في زمن المِحن، لتعبرَ بهم ومعهم إلى رحاب المِنَح... آنذاك ستحدِّث ذاتك: كيف لي أن أردَّ دَيْنَ من منح عمري عمرًا جديدًا في زمن الشُّحِ الشديد؟!

يحدث أن تتأمّل في عُزلتك وغُربتك وأَسْـرك الفسيح، فتجد شاشة الحياة أمامك زاخرة بأقاربَ كانوا متباعدين وهم اليوم نادمون، وآخـرون متنفِّعون مواصلون، ديدنهم الدينار ولم تصلهم بعد رسالة جَلل الخُطوب. تمعن بنظرك باحثًا عن أصحاب المكانة وصُنَّاعَ الأمل، لتكتشف أنهم في ندرة غياب بلا إيابٍ رغم ما حلَّ بالبلاد والعباد... آنذاك ستحدِّث ذاتك: أما آن للفارِس أن ينأى بنفسه في قادم الأيام عن رحى المعارك، ليأويَ إلى ركن الرضا والسلام، وراحة البال وقائمة الإهمال، وسكينة

مستدامة مع نفس مطمئنة قانعة قرأتْ الكتاب حتى منتهاه فعلمتْ ولزمتْ!

يحدث أن تُلقي برأسِك المثقلِ بعد يوم طويل قصير في عُزلة عالمك الإلكتروني، فإذا بشريطِ الحياةِ يمرُّ أمام عينيكَ، وأطياف من تشتاقهم حولك حاضرة وأنت في حضرة الغياب... آنذاك ستحدِّث ذاتك: كيف تمَّ السطو على سِنِين العمر مع سبق الإصرار؟ كيف مضتْ السنوات بينَ المسافرين وفي صالاتِ المغادرين؛ واليوم مقعدي مع الحنين نتشارك أنين الصامتين الصابرين المتفائلين؟! ألم يأن الأوان لأترجَّل من جديد؟!

عِناق الثلج و دِفء الذكريات

١٧ فبراير ٢٠٢٠

رغم صقيع أوروبا الشمالية وتحديدًا كندا، يبقى لقاء الأُسرة والأبناء هو الدِفء والعِناق...

في زيارة شتوية، أمضيتُ وقتًا لا يُنسى بصحبة براءة جيل جديد، جسورهم ممتدة نحو الغد المشرق، وقد أحاط بنا بياض (الثلج والقلوب) مجتمعين... كنت أتمنى أن يطول بنا المقام... جميلٌ أن ترى صغارك كبارًا يأخذون هم القيادة والمبادرة وتبقى أنت التابع بعد أن كُنتَ المتبوع... إنها استراحة في واحات العمر مع فلذات القلب.

في رحلة غير اعتيادية من الشرق الأوسط إلى أمريكا الشمالية تقضيها بصمتٍ وشوقٍ وترقُّب على مَتْن الطائرة، تودُّ لو تُطوى القارَّاتُ ويبتلع المحيط الأطلسي تلك الساعات الممتدَّة، لتصلَ لوجهتك حيث موطن فلذات أكبادك في كندا التي تَوشَّحت بالأبيض في فبراير الأثلج.

وبرغم ثلاثية الصقيع والثلج والبرد، فإن لهيب الشوق أبى أن ينطفئ إلا بالعناق، وضمة اشتياق، الأبيض تحت مهبِّ الريح يعانق الشجر والحجر على مرمى البصر، يحتويك، يناديك، يداعبك ويأسرك، فتتوحد معه دون عتاب أو ضجر... تتحدَّرُ دموعٌ دافئة، لكنها قبل أن تصلَ إلى الأرض تتجمد... الأبيض واحتك لاستراحة محارب في زمن التضاد ودنيا الألوان وفوضى الخلاف والاختلاف.

لأول مرة أستشعر أن للأبيض معنى مختلفًا يحملني للدفء وسط كثبان الثلج الممتدّة إلى ما لا نهاية، بلون أُحادي يكسر حتى اختلاف الأشكال أمامك، فتشعر بالدفء في أطرافك، وأجفانك، ووجدانك... شعورٌ يَهَبُ السكينة بهجةً ترتشفها مع كأس الشاي الدافئ، تلتحفُ كنزَك الأبيضَ مُطلاً من النافذة الشفَّافة والمزركشة ببلورات الصقيع الفضية، لتُحِيلَ كلَّ ما أنتَ فيه إلى احتفالية «العيد الأبيض».

تترى الليالي والأيـام، وساعتك البيولوجية تتلاعبُ بك حتى تكبحها باستعادة توازنك من جديد، هناك في مدينة «ويندسور» الثلجية في مقاطعة «أونتاريو» الكندية على الحدود الأمريكية، يكمن سرٌّ عصيٌّ على البوح، أسيرٌ للصمت، بلوريٌّ كالثلج... همسُ الحديثِ رقراق، وبوحُ القلوبِ دفّاق، والخاطرُ أقربُ للأسماع من صوت الحناجر، وقصصُ النجاحِ

وشغفُ الإنجازاتِ في النبرات كفيلةٌ بصناعة كل لحظة في يومك، تُسنِدُ رأسَك إلى الخلف مُغمِضًا عينيك لتتوهَ بين عوالم المدينة الصغيرة الرابضة بحضن نهر «ديترويت» لتدركَ أن هناك ناموسًا ارتضاه من وطِئت قدماه تلك الأمصار، ناموس أنا لست أنت وأنت لست أنا، ولكننا شركاءُ في الإنسانية، نتشاركُ الطموح، ويجمعنا قبول الآخر والتسامح.

سرٌّ آخرُ أبتْ أن تبوحَ به المدينةُ الصغيرةُ في مساحتها، الكبيرةُ بأحلام قاطنيها: وقتُك منظَّم، والطاقة الإيجابية تجتاحُ الأرجاء وتشع كشعاع ضوء الشمس على الثلج، وأحاديثُ الأمسياتِ ماثلةٌ على الضفاف يرتقبها عشاق الحياة ببساطتها.

ثم تعودُ أدراجك بدفء ذكرياتك، تطوي عباب أجواء بحر الظلمات من جديد، تودِّعُ المدينةَ المدثرةَ بوشاحها الأبيض، والمُقلُ على موعدٍ مع طيف من الألوان، بعد أن سحرها الثلجُ الأبيض.

أيَّتُها المدينةُ الصغيرةُ: حقًا الأبيضُ يليقُ بكِ!

الصديق الكنز

١٥ يناير ٢٠٢٠

في كتاب الصداقة، لدي صفحات معدودة، بها كنوز ثمينة من الأصدقاء، ورغم قِلَّتهم إلا أنهم يمنحون الحياة طعمًا آخر...

كتبتُ هذا المقال وأنا أستعرضُ أمام عينيَّ مواقف نبيلة، وصفات جميلة، وخِصالاً رائعة لأصدقاء في حياتي...

حقًا مهما كان رصيد حسابك في البنك؛ سيظل الكنز الحقيقي هو الصديق الصدوق.

ماذا أصاب عوالم الإنسان في عصر التواصل الرقمي الذكي؟ وماذا حصد في رحلته؟ وماذا افتقد وفقد في مجتمعه؟

نصبح ونمسي على رسائل بأجمل العبارات عابرة للقارات، وأحاديث صوتية ومرئية تصل لأبعد الآفاق، ونجوب أجمل الأماكن بضغطة زر، ورغم ذلك تتزايد حالات الاكتئاب والانعزال.

شعور دائم بأنك في غُربة، تريدها أن تتبدل إلى نشوة وليدٍ يحبو للمرة الأولى، وصدى بوحك لا يرتد إلا إليك، وساعات عمرك تتسارع... السنوات أضحت كحبات الرمال كثيرة العدد ولا يحصيها أمد، الكل في سباق لا تعرف نهايته ولا غايته.

وسط كل ذلك، يأتيك صوت صديق يبعد عنك مسافات، لا يسكن شاشاتك الرقمية أو سماعاتك الذكية، لكنك تستشعر دفء مودته، ونبض محبته، وتستأنس بكلماته، تمنحك اكتفاءً واحتواءً... يستشعر غُربتك؛ فيحضر دون دعوة أو استغاثة، ويدرك اكتفاءك؛ فيغيب دون ضجيج أو عتاب.

تسأل ذاتك: ماذا فعل بي صديقي كي يكون أنا الذي لست هو، وهو الذي كنت أتمنى أن يكون أنا؟، ولماذا في حضرته لست كما أكون في غيبته؟

تجيب نفسك: إنه الصديق الكنز الذي تقاسمتُ معه دروب الأمس، ولحظات الأمل والألم، وصفحات من الانتصار والانكسار، كلما صفعتك الحياة وجدتَه رُكنًا ركينًا يشدُّ أزرك، ويشاركك أمرك، ويريح قلبك.

الصديق الكنز... هو مِرآتك الكاشفة، وضحكتك الهاربة، وذكرياتك المنسية، وقصتك الراوية... في حضرته تبوح بمكنون الصدور، وتلتحف برداء الوفاء الراقي، وترتشف رشفات الدفء المفقود... معين لا ينضب جمالاً.

الصديق الكنز... هو الذي تستعذب معه شجون الحديث، حيث لا تجمل أو تزين بمساحيق وألوان، ولا تفاخر بنياشين وألقاب، ولا استعراض لممتلكات وأموال، فالقيمة معه ما تملكه الروح من رقي وتواضع وجمال.

الصديق الكنز... هو الذي يحرِّر ذاكرتك المُثقلَة بأحاديث الأمل والفرح... يدخلك عوالم لم تعكر صفاءها شوائب الزمن الهادر وضجيج المدن الغادر... كلماته، عباراته وصوته لم تلوثها نصوص الرسائل المنمقة، والتغريدات المصطنعة... دومًا يحضر ومعه بسمة، ولا يغيب عنك إلا وقد ترك بصمة، وصوته أمل وحياة.

إن وهبتَك الحياة كنزًا في صديق وصديقًا في كنز فاحتفظ به.

كل كنز وأنت صديقه!

في حضرة عام جديد

٨ يناير ٢٠٢٠

شهر يناير؛ هو شهر مولدي، حيث وُلِدتُ في ٣٠ يناير ١٩٦٨... ولهذا في كل يناير تحتويني وقفة الميلاد مع ما فات وما هو آت وشواهد الحال، وأعيش في عوالم كثيرة، وذكريات استحضرها كأنها بالأمس القريب...

تلك سطوري حين بلغتُ الثانية والخمسين في رحلة العمر، ولا أعلم لماذا استشعرتُ ما يستشعره المغادرون... فهي عنوان الحال وسبيل كل عابر، لأن كل العابرين في النهاية مغادرون...

تلك سطوري في حضرة العابِرين المُغادِرين.

مع بداية عام جديد، وتأمُل لما فات وتفكُر فيما هو آت، يخالجنا الحنين، وأيّام خوالٍ في واحات الحياة وبريق الأفكار ودفء القلوب وصدق مكنونات النفوس...

مع العام الجديد نستحضر من الذاكرة سنوات الصبا وأيام الدراسة وساحات العلم، ثم منصات الطموح والشغف تحتوينا

وتثرينا، نذوب فيها وتذوب فينا.

نقفُ على أطراف شريط الذكريات والحنين يغمرنا، نمرُّ عليه بعيونٍ تزاحمها المآقي بقطرات من الدموع على العمر الذي تسرَّب دون أن ندري، وفرح يطرب القلب، بتجدَّد اللقاء مع رُفقاء الزمن الجميل: ذاكرتك وتأملاتك بعد سنوات من الغياب في أعمالك وأسفارك، لنسترجع ذكرياتنا على مائدة الشوق والحنين الدفين، نتجاذب أطراف الحديث عن ترحالنا عبْرَ دوامة زمن التهمتْ أعمارنا بنهم، ونحن نحثُّ الخُطى ونرفع الهِمم بغية أن نعتلي القمم، ونحقِّق الآمال ونحيل ما تُحدّثنا عنه في الماضي بشغف يلمع في عيوننا اليافعة وقلوبنا الشابّة إلى واقعٍ نلمسه؛ وها نحن نتأمّله بعيون يملؤها التعب ووجناتٍ موشّحة بالوهن، نُسائل الزمن عمَّا كلَّفنا ذلك من ثمن، واليوم ومع عام جديد نلتقي من جديد مع خزائن البوح والذكرى والماضي والحاضر والمستقبل مجتمعين على مائدة واحدة.

نتأمّل ونتذكر أماكن تقطر شوقًا إلينا بقدر ما مُلئِتْ في الماضي بظلّنا ومقامنا.

رُبع قرن وأكثر خطَّ أثره على ملامحنا وقلوبنا وعقولنا وعافيتنا منذ غادرنا مقاعد الدراسة، وغيَّر شيئًا من تعابير وجوهنا ونفوسنا، ومسَّ أرواحنا؛ إلّا أنّ شيئًا في الأعماق بقي على حاله لم يتغيّر...

رُبع قرن أو أكثر استغرقنا الطموح حتى تاهت ذاتنا الحديثة الرقمية العصرية المتعبة عن ذاتنا القديمة العفوية النقية الراضية، ويحلُّ الحنين علينا ضيفًا ويستحضر معه عبقَ الماضي الآسر في ربوع البراءة قبل ألم التجربة، بالصدفة البحتة تدرك أنَّ ما في جسدك من أسقام وأوجاع وآلام علاجها ناقوس يطرق أبواب الحاضر وذكريات العمر الممتدّ في جداريّة الزمن المنصرم.

لقاءٌ واحد مع ذاكرتك ما قبل الرقمية لتستحضر مرابع البراءة وحضرة الغياب كفيل بأن يضعك في مواجهة ذاتك، هل غيَّرتك رحلة العمر أم أنَّ جوهرة دفينة كامنة في أعماقك تجهل كنهها تلحّ عليك بالشوق إلى ذاتك بين الفينة والأخرى؟

ستبقى قاسية غُربة الذات حين تبحث عن الذات وتدرك أن كلمة السر هي (عابرون) في حضرة عام جديد.

حكايا المطارات والطائرات في زمن الكورونا

٢٧ نوفمبر ٢٠١٩

طرحَ أحد القامات والهامات مشروعًا تطويريًا، به ابتكار وإبداع يخدم المجتمع خدمة جليلة... فإذا بالمتربصين أعداء النجاح يترصدون له بالمرصاد حتى كادوا أن يقضوا عليه شخصيًّا وليس على مشروعه فحسب...

حين سمعتُ بقصته؛ استرجعتُ مواقف مماثلة كثيرة... وحضرني سؤال الأمس واليوم وكل يوم...

إلى هؤلاء الذين يطالعون في المرآة مساءً قبل أن يذهبوا إلى النوم، بعد أن قاموا مع السبق والإصرار والتعمُد باغتيالٍ رتَّبُوه في نواياهم وعقولهم وقلوبهم قبل أياديهم لأصحاب الفِكْر والمشاريع الريادية والنفع العام.

سألني أحدهم وذبذبات من الحزن تنبعِثُ من سؤاله: كلما جال الفِكْر وجاد بخلاصاتٍ إبداعية تترجمها لمبادرة أو مشروع يخدم الصالح العام ويحقِّق قيمة مضافة؛ وجدت نفسك في شِراكِ المتربصين المغتالين المباغتين للعمل الدؤوب بسطوٍ

مسلّح ليستحوذوا على بنات أفكارك، وليتهم يصنعون منها خُبزًا نافعًا، بل يحوِّلونها رمادًا وسرابًا حتى تُوأد قبل أن تُولد.

وحين تطغى عمليات السطو المباغتة عليك، تحجم عن الكلامِ مُؤثرًا الصمت الممزوج بغصة في الحَلْق، وكأنك في سرادق عزاء تستدعي فيه مآثر من غادرنا وتتأمل هشاشة حياتنا؛ كيف لا وأنت لا تملك دليل إثبات حقك وثمرة جهدك المغتصب... فماذا نفعل يا صديقي؟

يا صديقي: الاقتراب من الآخر، مُفضيًا إليه بخلاصة معرفتك وخبراتك عن صفاء سريرة وحُسن نوايا ونُبل غاية وروح معطاءة، ما هو إلا نقطة قوّة، إلا أنَّ بعض الاقتراب احتراق، ميدان اغتيال، وكأننا نعيش في متاهة معجِزة عصيّة على الحل... الاقتراب من الآخر بمكنون عقلك وشذرات فكرك وبوح مقصدك؛ سيعرّضك لسطوٍ تعود منه خاوي الوفاض، مثقل الفكر، منهك القوى، مستحضرًا آلام النُّبلاء ومعاناة الفضلاء وملحماتِ الخير والشر.

الاقترابُ من الآخر والبوحُ له بما اختزلتَه في نفسك من أفكارٍ وظلال ظلَّتْ تجول برأسِك وتنال من أوقاتِ راحتك، وتقطع عليك طيب المنام لأيامٍ؛ حتى خرجتَ من دوّامتها بمشاريع إبداعية، ليأتي من يستبيحها لنفسه ويقتصها لتصبح حقه المكتسب يدَّعيه بكل جرأة وانعدام أمانة أو يقضي عليها لتصبح والعدم سواء؛ حسدًا وبُغضًا للخير المحض.

يا صديقي: لا تقترب فتشقى، ولا تبتعد فتأسى، ولا تبالغ بالاقتراب فتحترق كل فكرة أو مبادرة أو مشروع مبتكر، وعليك بصمت القلوب والسباحة في العقول، والتدبُر في ملكوت علام الغيوب برداء اليقين بأن ربَّ العالمين عادلٌ أمين... لا تحزن، فمن وهبه الله ينبوعًا يغترف منه متى شاء، واستبيحت منه قطرات، فسيبقى متدفقًا ما دام القلب نابضًا، والعقل متيقظًا، والشغف حاضرًا ومتجددًا.

لا تقضِ عمرك في الاندهاش لأنه سيطول، ولا في التعجُب لأنه لن يزول.

يا صديقي: كلما ارتقيتَ اكتفيتَ واستغنيتَ، وبِتَّ بمحرابك مرتاح البال هانئ الحال، بعيدًا عن عوالم التكالب والتحاسد وسواد القلوب، لتمضي في رحلتك راضيًا بعيدًا عن خطر الاقتراب وآلام الاحتراق.

الساعة الأخيرة

٢٣ أكتوبر ٢٠١٩

مرَّاتٌ عديدة كُنَّا فيها رُفقاء الساعات الأخيرة... إلا أنني في هذه المرة تأملتُ الزمن، والساعة وعقاربها، تأملتُ كيف يمضي الوقت سريعًا... منذ أن وصلنا إلى الصلاة على المتوفى وكان ذلك قبل العشاء بدقائق معدودات، ثم الصلاة عليه بعد صلاة العشاء، ثم التوجه إلى المقبرة، ثم الدفن والعودة مرة أخرى، لم يتجاوز الوقت سويعات معدودات؛ فسألتُ نفسي آنذاك: أرحلة أرضية تنتهي في سويعات تستحق منا كل هذا العناء؟!!

مع نهاية الأسبوع، كنتُ على موعد مع حدث، قد يتوقف البعض عنده بعُمق المتأمِّل المتدبِّر، بينما آخرون أبعد ما يكونون عن الموقف بكل أبعاده... تحيط بنا الأحداث، تُبقينا في داخلها، أو تلفظنا خارجها، يمرُّ بنا شريط الذكريات من الميلاد حتى الممات، ويبقى الإنسان بداياتٍ معلومات، ونهاياتٍ لا يعلمها إلا خالق السماوات.

بلغنا خبر وفاة قريب لأحد الأصدقاء النُّبلاء... الفقيد له أبناء وأحفاد وخِلان، ومضى في رحلته كمآلِ وحالِ كل حي، وصلنا المسجد لصلاة العشاء ثم الصلاة عليه، الكثيرون ملتفون ويتواسون ويقدمون التعازي... أقارب لم تجمعهم إلا لحظة الفراق، متحابون أو متخاصمون تداعوا لوداع من كانوا بالأمس في حضرته... الوداع يجمع من آثر الهروب. أحدهم تكاد تسمع تمتماته: منذ ساعات كنت في زيارته مريضًا، والآن في وداعه فقيدًا، فما من خلود ليُرجى، وما من نعيم لا يفنى!

ساعة واحدة بين حيٍّ يُرزق، وميِّتٍ يُغيَّب في الرمس، وصارت دنياه كأن لم تغنَ بالأمس... ساعة وداع وتأمل، تسمع فيها همسًا: أبعدَ كلِّ تلك الإنجازات والإخفاقات والنجاحات والمال والبنين والحسابات والأعمال، ليس للإنسان إلا ما سعى في دنيا صفوها كدر، والمرء فيها على خطر إن عقل ونظر، وأن ساعة واحدة هي ما تبقى له ليودَّع من محبيه وأهله وخاصته طاويًا صفحته ليبدأ رحلة أخرى علمها عند علام الغيوب.

ساعة واحدة من الصلاة إلى المقابر إلى الدفن إلى الدعاء إلى العزاء، ثم يغادر الجميع ويبقى الفقيد وحيدًا إلا من رحمة بارئه، مستقبلاً ما هو آت، مستدبرًا ما قد فات... ترمق بناظريك عشرات المغادرين، وجوههم صوب الدنيا ليواصلوا من جديد رحلتهم القصيرة مهما طالت، بعضهم متدبرٌ متأمل، وبعضهم

للمغانم وشواغل الحياة متعجِّل.

ساعة واحدة تكاد تسمع نُصح من غاب عنا وودعناه: ما زال لديكم صفحات في كتابكم للإخلاص والإحسان ومراجعة النفس. كتابي وصل خاتمته، أحسنوا فيما هو مقبل ولا يغرنَّكم طول الأمد.

تأخذك عيناك ملتفتًا إلى الخلف، وأنت عصيُّ المشي، حيث القبور متسائلاً: أيهما أحسن حالاً ومآلاً: من غادر بخبيئة ادخرها ليوم مشهود، أم من واصل لاهثًا خلف الوهم والسراب والاكتناز والاستحواذ والقتال في جبهات اللاخلود واللاوجود واللاحقوق والجحود؟

ساعة واحدة تكفيك لتواجه ذاتك: هل حقًّا حضرتَ وتأملتَ واعتبرت، أم كنتَ غائبًا رغم حضورك؟

الاغتراب... والاعتزال

١٦ أكتوبر ٢٠١٩

كُلمَّا حللتُ بمجلس به أصحاب عِلم و معرفة وتخصص ممن قضوا سنوات حتى وصلوا إلى أعلى المراتب العلمية بجد وجهد واجتهاد؛ أجدهم مجتمعين حول الأنين والغضب من السنين والجيل الحالي وغُربة ذواتهم بعد أن تواروا إلى الخلف وتقدَّم عليهم مَنْ هم أقل مِنْ تلاميذهم ممن لا يملكون إلا القشور والدق على الطبول في وسائل التواصل الاجتماعي...

سطوري كتبتُها بعد غصة في الحلق تلمستها في أحد اللقاءات مع هامة وقامة يكاد يعرفه القاصي والداني ولكنه اليوم يجتر سنوات العمر ألمًا وحسرةً بعد أن أصبحتْ بضاعته متقادمة بعد أن تقدَّم عليها ما لا يُغني ولا يُسمن من جوع.

أحيانًا يأخذنا البوح إلى مناطق مُحكمة الإغلاق، وسراديب من الأسرار، لعلهم ظنوا أنهم أحكموا القبضة عليها وأسدلوا عليها الستار، يُدهشك تزايُد من آثر الصمت منهم، أو حجز مقعده في

مِحراب الاكتفاء وكهف الاستغناء، وآثر سلامة نفسه على مغبة الدنيا، والانكفاء على النفس في واحات الذات.

قطعتُ دوامة صمت أحدهم بسؤال: كيف وصل بك المطاف إلى حيث أنت الآن؟ كيف اخترتَ الصمت والانـزواء؟ كيف جعلتَ من الاعتزال صومعتك، ومن الاكتفاء ملاذك الآمن؟ هل ستقضي ما تبقى لك في هذا المعبر الدنيوي في سياحة واستراحة، وقراءات وتأملات، وعبادة وابتعاد؟

لم تستغرق إجابته عن السؤال سوى لحظات، حتى اخترق حاجز الصمت قبل أن يأوي إليه من جديد، فأمطرني بوابل من المُسبِّبات: يا صديقي! لقد غدَتْ بضاعتي خاسرة، ومعارفي متقادمة، لقد تراكم على سِفري التراب، وما عاد أحد يهتم لعهدي القديم، لقد انصرف عني المُريدون، فما وجدتُ يدًّا تروم خلاصي، فأفزع إلى الدموع فلا تجيبني، لأظل بين سندان الهجر ومطرقة الحياة.

ويواصل في أسى:

يا صديقي، حتى خُطى الأحفاد إلى مـأواي غـدَتْ ثقيلة، يتحملون مغبة زيارتي بشقِّ الأنفُس، ويتململون في بيتي الخالي من (الواي فاي) والألعاب الإلكترونية... أحاديثي عن الأخلاق وحكاياتي عن الزمن الجميل ثقيلة على مسامعهم، ولم يعد من بين الأصدقاء شغوفٌ بأحاديثي الخالية من مهارات الاغتراف

ودهاليز الاستحواذ، فما من خِلٍّ يواسيني حين يزداد احتياجي للمواساة.

لقد زاغتْ العيون في الهواتف الذكية، وتزايدتْ أمراض التوحُد والاكتئاب، وغاب التلاحم والتراحم، فهؤلاء أنشدوا ضالتهم في تواصل «سيبراني» وهمي، فعناهم من شأن الزمان ما لم يعننا... تأملْ مَنْ حولك، لقد انطفأ بريق العلماء والأدباء والمفكِّرين، وتصدَّر الفاشينستا واليوتيوبرز والفيسبوكيون والتويتريون والإنستغراميون المشهد بمحتواهم السطحي الذي يفتقر إلى العُمق والمرجعيات الموثوقة... إنه زمنٌ غير الزمن.

وقبل أن يدخل مِحراب صمته من جديد، رمقني بعينيه الذابلتين، ورماني بكلماتٍ موجعة: يا صديقي، أوائل الصفوف ليس أنا وأنت!... إنهم اليوم هم من كثُر عدد متابعيهم في الفضاء الوهمي! أيًّا كان نوع المحتوى الذي يقدِّمونه! هذا هو مقياسهم، لم تعد معايير هذا الزمان لتشمل من أثمرتْ جهودهم عن إعداد جيل متسلح بالمعرفة والمهارة... فهل أدركت الآن يا صديقي ثنائية الاغتراب والاعتزال؟

أحلامنا المؤجلة... النداء والصدى

٤ سبتمبر ٢٠١٩

تتعدَّد في حياتنا الأمنيات والمشاريع والطموحات..
في السنوات الأخيرة تعلمتُ أن الأحلام المؤجلة هي وهم ذاتي... وتعلمتُ ألا أؤجل مكالمة صديق، ولا أؤجل تصفح كتاب كلما سمح الوقت، ولا أؤجل إسعاد النفس والذات متى جاءت فرصة لذلك.
فالتأجيل وهم، لأن الرحلة قصيرة...
كتبتُ كلماتي هذه مخاطبًا ذاتي قبل الآخرين:
لا تؤجلوا أحلامكم... فالتأجيل وهم.

مَنْ مِنَّا لم يحمل في قلبه حُلمًا مؤجلاً يتوارى وراء مدائن الصمت، ويئنُّ بحُزنٍ مهيب خوفًا من خطيئة البوح، لكن يومًا ما سينضح مرجل أحلامك المؤجلة بين حاضر يصنع لُغته شفاهةً، وماضٍ قد يفرض نفسه كتابةً، بعد أن أصبحتْ رائحة الأمنيات البائتة تزكم الأنوف، وتقضُّ المضاجع بين يأسٍ مضجر، وأملٍ يحجزه الانتظار.

تحاصرك صنوف كُتبك المتراصَّة في مكتبتك بنظراتِ عتاب الأصدقاء الأوفياء ممن ينتظرون تصفُحك وعدلك المفتقد، لتوازِن بين شواغلك وشغفك ليتحقق اللقاء مع المسطور والمكنون، وأنت تردِّد: يومًا ما سأكون في حضرتكم، فلم أبتعكم وأجعلكم جزءًا من جدارية مكتبتي المسافرة في وجداني، إلا لأن لكم في عقلي مكانًا ومكانة.

وتمضي الأيام ويطول الانتظار، ويتحول العتاب إلى حروفٍ صامتة، وقد تأخَّر عدلك لذاتك ولساكني مكتبتك... وتلك جدلية أحلامنا المؤجلة بين النداء والصدى مع صديقك الوفي... كتاب لا يعرف النفاق والرياء.

تأتي الأعياد والمناسبات، وتنهمر عليك مباركات وقطوف من أجمل الكلمات، وتتساءل: لماذا لا تستبدل صمت حروفك مع هذا الوفي، والآخر من صلة أرحامك، والثالث من رُفقاء درب الزمن الجميل، لتفاجئه بمكالمة أو لقاء بدلاً من رسالة صماء.

تقفل الأعياد والمناسبات أبوابها على سيل أمنياتك المؤجلة... ستهاتفهم، وتسعد بالصُّحبة واللقاء الذي طال انتظاره، حتى تأتيك أخبار من حاصرتْهم الأمراض، أو من انقطع بهم الوصال فرحلوا في صمت، لتمضي مع جدلية أحلامك المؤجلة بين النداء والصدى، كمن يسعى وراء سراب يحسبه الظمآنُ ماء، مستحضرًا أصدقاء نُبلاء وذوي رحم وقرابة.

تكِدّ ليل نهار، تُخاصِم الإجازات، مشغولاً بأن البيت الموعود حتمًا سيشيَّد هنا أو هناك، تحجز قطعة أرض وتزورها في منامك، تتابع أسعار البناء وسوق العقار، ترسم تفاصيل المكان: مكتب خاص، واستراحة ضيوف، وحديقة غنَّاء، ومسْبح تسبح فيه بأفكارك وحِملك الثقيل.

وتمضي السنون وأنت تنسج بخيالك خيوط أمل بين وعود وهمية، وتسأل نفسك مَنْ سرق أحلامي؟ ثم تؤثر الصمت ليأتي من يكمل مسيرتك، أو تكتفي بمقعدك أينما كنت، لتمضي أيامك في جدلية أحلامك المؤجلة بين النداء والصدى في بيتك الموعود الذي لم يرَ الوجود.

إلى أصحاب الأحلام المؤجلة:

مِن حقك أن تعتلي صهوة الأحلام الجميلة، لكنها ستسقط صرعى بين النداء والصدى إذا لم تجعل يومك السعيد هو حلمك غير المؤجل.

«الملك لير»... ثنائية العقوق والحقوق

٢٨ أغسطس ٢٠١٩

المسرح يسكنني... يرمِّم بنياني وجدراني ووجداني وأفكاري.

وقصة «الملك لير» هي قصة الأمس واليوم والغد، فهي قريبة من كل إنسان، طمعًا وجبرًا في منح الحقوق والعقوق.

شاهدتُ العرض في مسارح لندن والقاهرة وتورونتو، وفي كل مرة كأنني على موعد جديد مع عرض جديد لم أره من قبل... تلك هي العبقرية الشكسبيرية التي تجعلك أسيرًا وآسرًا.

تلك حروفي عندما شاهدت مسرحية الملك لير في القاهرة أغسطس ٢٠١٩.

لا تزال ليالي قاهرة المُعِّز تصدح بتألُق مسارحها العتيقة والحديثة كوِجهة ترفيهية في عطلة العيد، حيث كانت وجهتي لأحد المسارح الجديدة التي أعادت إحياء صناعة المسرح الجماهيري... هناك كان لقائي بعد ١٧عامًا مع العرض المبهر

للفنان المبدع «يحيى الفخراني» في إصدار متفرِّد للرائعة الشكسبيرية «الملك لير» (١٦٠٣م-١٦٠٦م)، إحدى أشهر الأعمال الإنسانية في التراجيدية الشكسبيرية ضمن الروائع الأخرى: هاملیت، عُطيل، ماكبث.

(ليس أشد إيلامًا من نابِ حيَّةٍ رقطاء، غير ابنٍ جَحُود!)... يكاد القلب ينفطر، وتستحضر الذاكرة كل أنواع العُقوق الإنساني حين تسمعها من الملك المكلوم والموجوع بعقُوق بناته.

شاهدت هذه المسرحية على مسارح لندن التليدة عدة مرات، لكن تبقى للنسخة العربية نكهتها ومذاقها الخاص.

تتلخص قصة المسرحية في قرار جنوني للملك لير بتوزيع مملكته بين بناته الثلاث بناءً على من تمدحه بحبها أكثر، فكان أن تملقته البنتان الكبرى والوسطى، وصَدَقته البنت الصغرى بأنها تحبه كما يجب أن تحب البنتُ أباها، لكنها افتقدت قوة المنطق لإقناع أبيها بمبتغاها، فكان أن حرمها من الميراث، وقسَّم مملكته بين أختيها، ليبدأ الصراع بين الخير والشر، ولتبدأ مأساة الملك بين الجحود والعقوق، حيث ينتهي مطرودًا هائمًا، تشق صرخاتُه الراعدة البريَّة، وتفشل محاولة ابنته الصغرى في استرجاع مُلكه لتموت مقتولة بيدِّ أختها، ويموت الملك لير مقهورًا على عرشه وابنته.

أصرَّ شكسبير على هذه النهاية التراجيدية كي يبقى أثرها في نفس المتلقي، وليؤكد أن تفريط الملك في حقوقه كان سببًا في عقوق بناته ومصيره المأساوي.

«الملك لير»... قصة الإنسان على مرِّ الزمان، حين يظن واهمًا أن منظوره للعدل والإنصاف يتطابق مع ما يُبديه الآخرون من محبة وولاء بجميل اللسان دون تصديق بالجَنان، فثنائية العقوق والحقوق متلازمة في واقع حياتنا، تؤكِّدها إشكاليات وصراعات مجتمعية عديدة، حيث تكتظُّ المؤسسات الصِّحية ودُور كبار السِّن والمحاكم في بعض المجتمعات، بمن يسردون قصصًا أكثر مأساوية.

يقف المُشَاهِد لمسرحية «الملك لير» منبهرًا بأسلوبها البارع في التعبير عن النفس البشرية وصراعها الحياتي بين الخير والشر عبْرَ كل الأزمنة، فعبقريته، شكسبير، أنه خلَّف أعمالاً تحمل بذور الحداثة، وتلمس منحنيات النفس البشرية بكل ما فيها من تضّاد وتناقض، فاستحقت العالمية.

ماذا حدث ؟!

٢٦ يونيو ٢٠١٩

سيظلُّ هذا السؤال قائمًا : ماذا حدث؟!

ماذا حدث للأخلاق والبِّر والإحسان؟!... ماذا حدث بين الأقربين قبل الأبعدين؟!... ماذا حدث لمفهوم الصداقة؟!... ماذا حدث في التواصل؟!... ماذا حدث في كل حياتنا؟!

حدَّثتني نفسي بهذا السؤال حين كنت أسمع قصة لجدة مُسِّنة في العمر تشكو من عدم بِرِّ الأبناء والأحفاد وقسوة القلوب... هكذا ستبقى الدهشة تعلونا مما حدث مِنْ حولنا ما دمنا لم نكن يومًا جزءًا مما حدث ولم نقبل به.

ماذا حدث؟!

تعاملات أقرب إلى الوهميات لا توقدها سوى المصالح، بل تذوي كعودِ ثقابٍ سريعِ الاشتعال والزوال؛ وتودُّدٌ لا يلوحُ إلا في أُفق المنافع، ومكامن الوجدان اِصفرَّت من بعدِ تورُّدٍ، كقُرصِ شمسٍ باهتٍ يرقد في كَبَد السماء في نهارٍ ضبابيٍّ بارد، فلا حرارته تُغني ولا ضياؤه يَهدي، وحضوره أشبه بغيابه.

ماذا حدث؟!

مُدننا قاسية القلوب، متجهمة الوجوه، مقطّبة الجبين، يتوشَّحُها الكدر، جُدرانها متكلِّسةٌ بالصراعات والخصومات والمعادلات النفعية، خالية الوفاض، ضجيجها كثير ومنتوجها قليل، فالفرار منها هو أفضل قرار!

ماذا حدث؟!

أصبح الاستغناء والاستكفاء دَيدننا في كُلِّ محفلٍ، نقابل سيلَ المجاملاتِ بصمتٍ مُطبق وإيماءةِ رأسٍ كما يُومئُ المريض برأسه للركوع والسجود، نتجرَّع شرابًا ندري ما يحويه من سقم وداء... تساؤلٌ واحدٌ يجعلك تُمعِن في كل هذه الأعراض الجانبية: هل عساه يكون طاعونًا ضرب صفاء المحبَّة ولوَّث صفو القلوب، لتصبح الأواصر بيتًا من جليد في صحراء الجمود والشرود والبحث عن المجد الزائف؟

ماذا حدث؟!

مَنْ يقطعون سيل الأقوال المنهمر بالعمل قليلون... تُطلق النداء لكل ذي هِمَّة وفكرةٍ تُخلِّف أثرًا مستدامًا، فيرتدّ إليك صدى ندائك مخذولاً، أمَّا عن سارقي الوقت والعمر والأفكار والمسوِّفين والمُرجئين ومُشيِّدي قصور الوهم والخداع، فهؤلاء قصورهم ترمقها الحقيقة بازدراء، فإذا أفاقوا أبصروها هباءً في هباء.

ماذا حدث؟!

أسْـهُـمُ القِيم في تـراجُـع، ومـؤشـرات التباغض والتناحر والتربص والاكتناز والاستحواذ على ما ليس من حقك في تزايد، حتى غدَتْ هي الأصل في التعاملات، وأضحت الثقةُ استثناءً، والوعودُ أوهامًا، والجُود غباءً، والإيثار أضغاثَ أحلام.

ماذا حدث؟!

سطوٌ تملَّك خزائن البراءة والمودة والإخاء، وأظلت البعض غيوم اللاإنسانية واللاتراحم واللامبالاة، فهل اعترى الشُّحُّ النفوس حتى تناست العطاء والوفاء؟، ألم يأنِ لهذه الغيوم أن تنقشع لتجلو غياهب القلوب؟

ماذا حدث؟!

إصدارك تقادم، عليك تسجيل هويتك في متحف النسيان، فبادر بحجز مقعدك في شُرفةٍ مطلة على نهر الذكريات، لأنك لن تعثر على من يروي ظمأ فضولك بإجابة سؤالك: ماذا حدث؟!

ماذا حدث؟!

سؤالٌ تعلوه الدهشة، وتعتريه الخيبات، ولا تكفي المُجلَّدات لجمْعِ ما يُدليه من إجابات، سؤالٌ يطلُّ على عتبات القلوب التي ما زالت صامدة ومرابطة... فطوبى لمن قلوبهم نابضة، وقِيمهم راسخة، وعزائمهم لا تلين، وصمتهم يغنيك عن الحال والمآل، طوبى لمن يعرفون الإجابة، وآثروا الصمت!

إنه المسرح سيدي

١٢ يونيو ٢٠١٩

عِشتُ في لندن سنوات؛ دارِسًا وباحثًا وزائرًا... وإن سألتني عن عشقك اللندني قلتُ لك: إنه المسرح، خاصةً العروض الكلاسيكية المرتبطة بعروض عالمية.

حلَّ العيد هذا العام ولم يكن هناك مفرٌ من أن أكون إلا في لندن لإتمام مهمة بحثية مهمة، فقلتُ لنفسي: عليك أن تحتمي بعشقك المسرحي من غُربة العيد في لندن... وحقًا خرجتُ من هذا العرض ممتلئًا، فأسرعتُ إلى مفكرتي في ذات الليلة لأكتب خواطري التالية قبل إنهاء مُهمتي في لندن خلال العيد.

مدينتان تناديان وتهمسان في أذن القادم وتعاتبان الراحل، ألن تحجز مقعدًا في مسرحنا؟ هل أنت في مَعرض عن عروضنا؟ كيف لك أن تكون في حضرتنا ولا تشهد إرثنا الفكري والتاريخي مجسَّد في عبقرية أداء أبطالنا المسرحيين، وكأنهم دلفوا للتو من حِقبة تاريخية، أو انبثقوا من عصارة فكرية عتيدة؟...

هكذا حال «ويست إند» بلندن و«برودواي» بنيويورك؛ مع كل من يصل إليهما. فمن حضر لندن ونيويورك ولم يتمسرح، فقد فاته الكثير.

في هذا العيد أبتْ المشاغل أن تُخلِّي سبيلنا، فجعلتْ وجودنا في لندن حتميًّا لا مفرَّ منه، إلا أنني استجبتُ لنداء مدينة الضباب، وأجدتُ التسلل من زحمة الأعباء، ووجدتُ لنفسي فسحةً في خضم التحديات، سلَّمتُ فيها السمع والبصر والفكر لعرض مسرحي بعنوان «كلهم أبنائي - All My Sons» (١٩٤٧)، إحدى روائع الكاتب الأمريكي «آرثر ميللر» (١٩١٥-٢٠٠٥).

كانت المقاعد ممتلئة عن أخرها، وكأنه اليوم الأخير في حياة هذا المسرح اللندني العتيق، يُخيل لك أن الحضور أدركوا أن الجمعة ما بعدها جمعة، لهذا حرصوا أن يكونوا هناك مجتمعين.

تأخذك أحداث المسرحية إلى فترة الحرب العالمية الثانية، وتُجسِّد صراع الأب مع الأبناء حين يعلمون بتورطه في مقتل ٢١ طيارًا إثر بيعه معدات تالفة للجيش الأمريكي، حيث يناقش الكاتب فكرة المسؤولية والمجتمع والفجوة بين الأجيال، وينتقد خواء الحلم الأمريكي الذي أصبح كابوسًا بتهاون الأب في مسؤوليته الأخلاقية تجاه مجتمعه.

تُدهشك حالة الانسجام لثلاث ساعات لشخوص العرض وهم يجسِّدون ملحمة الأب مع أبنائه، ومأساة الأم المكلومة،

وتشتد الحبكة الدرامية بين أمومة ممزَّقة، وأُبوة تعتصر، وحياة عائلية متناحرة أدركها الحلم الأمريكي فاحتواها وغزاها، وعبَرَ بها وتركها في الخواء والعراء تنتظر حُلمًا لم يرَ النور، وعقدًا لم يكتمل، ليخرج الحضور بعقل مدجَّج بالأفكار والأسئلة الحائرة، لعلهم يدركون الحكمة: بأن الحياة تستمر رغم كل شيء.

هناك مُدن حُبلى بالتشوهات والمتناقضات، لكنها تهديك أجمل ما بجُعبتها من سِحْر العِبر، وجميل القِيم، وحكايا البشر، وهكذا هي لندن تطحنك رحى أوقاتها المتسارعة، لكنها تودِّعك بلُغتها المسرحية الملهِمة.

في مطار هيثرو، تستشعر وكأن الكل يودِّعك مبتسمًا بلسان حاله، حضرتَ ووفيتَ، وبمسرحنا التقيت، ومع عرضنا تفاعلت واستمتعت، لتغادر توَّاقًا حتى يحملك الحنين من جديد مع عرض آسر فريد، يتدفق أسرارًا وعِبرًا وإلهامًا...

إنه المسرح سيّدي!

العيد في كَنَف أُمي

٥ يونيو ٢٠١٩

دومًا في العيد أعيش مع عشب الاشتياق لأيام خوالي في حَضْرة ست الحبايب... في هذا العيد كنتُ في ترحالي وأسفاري مضطرًا لأداء بعض المهام، فتراءت أمامي ذكريات كثيرة في صُحبة أمي ولمساتها الحانية التي امتدَّ دِفؤها من أفريقيا ليصلني إلى أوروبا... إنها الأُم، عنوان كل حضور مهما أخذنا الغياب.

مَنْ مِنَّا لا يناديه فيضُ الذكريات، حين تشتد غصَّةُ الافتقاد شوقًا وفرحًا وحنينًا لأيام أضحتْ للمُرتحلين والمغتربين بساطَهم السِّحري العابِر لكل الحدود الجغرافية في مجرَّتنا الأرضية.

أقبل العيد، وأقبلتْ معه أمي... قسيمة الحياة، وموطن الشكوى، وعماد الذكريات... بقلبِها الصافي النقي، وروحها المفعمة بالرضا واليقين، هي نبضٌ لا يغادر فؤادي، ودمٌ سارٍ في شراييني.

أقبل العيد وعَلَت تراتيلُ فرحه لينثر زهور الذكريات، وليتوِّج الأم ملكةً لياليه المبهجة، الدافئة بدفء أنفاسها التي تزيد العيد فرحةً وجمالاً. نستقبل معها العيد بطقوسه المعهودة: كعكٌ كالعطر يفوح شذاه من بين أنامل أمي، ليشتم رائحته الأبناء والجيران، وينتشر عبقه في كل الأرجاء... نُجالِسُها في تلك اللحظات فننعم بجميل حكيها، ودقة صنيعها، فهي نبع الألفة، ومجتلى القريحة.

جوٌّ يسوده الوئام، وتستشعر فيه الدفء والحنان... حين تدور بنا الأيام وتطحننا طواحين الأسفار، وتقتلنا اللهفة، وتغادرنا البهجة، ونبحث عن مَرسى لنحطَّ رِحالنا... نتذكر تلك اللحظات، فترتسم شفاهنا بالابتسامة مُعلنةً عن حنين لا تحدُّه حدود، وسكينة قلب لا تعدلها سكينة.

حين يهمس في أذني صوت أمي، لتمنحني الكعك مع كوب شاي يمتزج بالحليب، مُداعِبة خدي بيديها، يكتسي وجهي فرحًا كدتُ أنسى ملامحه، فتمتلئ لحظاتي بصوتها وهمسها وعذب حضورها... فلا شيء يجلب السعادة أكثر من أن أحتسي مع هذا الكوبِ دِفءَ مشاعر أمي.

لحظاتٌ تأخذك إلى عالم الصفاء والنقاء، وتبعدك عن عالم العراك والصراع، وتمنحك شحنة أمل تقهر بها العقبات والعثرات، وتطوف بك بعيدًا عن عالم ابتلعك واحتبسك في

طواحينه بين حجر الرحى.

ما زلتُ أتساءل: كيف أبدعتْ أمي في جمال هذا الكعك الذي كان ضيفًا لا يُخطئه أنف، وكأنه رحيق العمر بعد شهر الصيام؟ كعك ذو مذاق خاص... لم تكن تدخل في مكوناته الملونات والمنسمات والمقادير الدقيقة والأشكال المنمقة... مكونات كعك أمي سهلة وبسيطة، مقاديره حب ووئام... أوقدتْ عليه في فُرن فؤادها ليستوي بدفء مشاعرها.

أحنُّ إلى كعك أمي... ولمسة أمي... وصدر أمي... وأعشق عمري لأنه بضعة من عمر أمي.

الأم نبع وجود وشريان حياة وأمل يحتويك كلما نازعتك الآلام لتهبك الأم الآمال... الأمُّ عنوانٌ دائمٌ مهما تعدَّدتْ أسفارك ودروبك، وتعاقب شروقك وغروبك، فحتمًا تبقى الأمُّ عنوانًا في حضرة غيابك...

كل عيد يا أمي وأنتِ عنوانه.

الوفاء والنقاء والارتقاء... ممنوع الاقتراب

١٥ مايو ٢٠١٩

في عالم المصالح التي تتصالح، وعالم المال والأعمال والكراسي والمناصب والمنافع، واللهث وراء الدرهم والدينار، بات حديث المودة والمحبة والصداقة الخالصة خافتًا خجولاً...

جمعتني صُحبة مع قامات في العمل القانوني قلَّما يجود بها الزمان، مِمَنْ هم خُلقًا وعِلمًا وعملاً وقِيمًا ونقاءً... جلسنا في تلك الأمسية لأكثر من ثلاث ساعات، في حديث النقاء، والصفاء والارتقاء... خرجتُ من هذا اللقاء بروح جديدة، ويقين أن الحياة جمالها بجمال الصُّحبة وروعتها بروعة أصحاب القيم والنَّبالة.

كانت الساعة تقترب من السابعة، حيث كنتُ على موعدٍ غير قابلٍ للإرجاء، ولولا ثورةُ مارِدِ الهوى وسُلطان الشوق داخلي لبقيتُ قيدَ الانشغال... كان القلب هو الدليل فاتبعتُه حين أردف الصديق قائلاً: سيصحبُنا ثالثٌ لتجمعنا مائدة مودَّة ثُلاثية الأضلاع على طاولة رباعية.

تنتهي المكالمة، وتبدأ نسائمُ الترقُّب تداعبُ السرائر بلطف، تصحبها لذَّةُ تسليم، كطفلٍ يجرُّه صاحبه من فصله الدراسي ليدفعه إلى ساحة المرح... فرصة سانحة للتجرُّد من لقاءاتِ المصالح، ودعوات لهم فيها مآربُ أخرى، وجلسات تغادرها وقد أُثقِل كاهلك بأحمال لا قِبَلَ لك بها، حتى بعض المواعيد مع رُفقاء الدرب لم تُخل الحياةُ سبيلَهم إلا وقد صبغت ملامحهم بالمغانم، وبدّلت بهم الصفقات، وأكثرها وهمية كلامية، فصار حالهم غيرَ الحالِ في عهدٍ أَفَل، فما يكون منك سوى التربيت على ذاكرتك الباهتة والركون لزاوية النسيان.

وصلتُ في الموعد لتحتويني حفاوةٌ ترحابية وطاقةٌ إيجابية، خاليةٌ من المغالاة والمجاملات، لقاءٌ أقرب ما يكون إلى حبَّات المطر المتساقطة على أرضٍ نال منها الجدب فارتوت... لقاءٌ طوَّقتْه عناقيدُ المحبة التي تسلَّلتْ من بينِ أكفٍّ تلامسك فتحتويك، وتداويك فترويك.

لم يَحلَّ على لقاء الأصدقاء الثلاثةِ رابعٌ نرجو منفعته، أو خامسٌ نرقُب مغانمَه، أو سادسٌ يتملَّق، أو سابعٌ يعدُّ علينا الهفوات والزلات وكأنه الملاك القادم من كوكب آخر، أو ثامنٌ يتباهى، أو تاسعٌ يُنظِّر، أو عاشرٌ يداري حسدًا تكشفه نظراتُه وترسمه قسماتُ وجهه.

كان اللقاء أبسطَ مما قد تظن، مفعمٌ بالصدق، مملوء بالشجون، تتخلله الوقفات والتأملات، يحملُ ثلاثتنا على بساط الذكريات، ويجوبُ بنا شمالَ الأوطان وجنوبَها، ويعرِّج على مواقفَ لقامات وهامات لا تُنسى، غابتْ أجسادهم وخلَّدتْهم أعمالهم... ثم نقف على سؤال محوري طرحه عـرَّابُ اللقاء ومهندس المودة القلبية: كيف لي أن أكون أفضل من (أنا) وأستبدل بها (أنا) ربَّانية نقية سماوية تواكب حاضرًا معقدًا وتتأهَّبُ استعدادًا ليوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم؟... ويبوحُ صديقنا الآخر بصمته المسموع: تلك جلسة ترمِّم عقلي وتمنحني ميلادًا جديدًا وثقة في (أنا) المُثقلة.

إن جادتْ عليكم الحياة بأصدقاء معادنهم نبالة، وصدقهم إخلاص، ووصالهم محبة، وغيابهم حضور، وحضورهم ارتواء، فلا تحرموا أنفسكم من مثل تلك الاستراحة: استراحة ثلاثية الوفاء والنقاء والارتقاء... ممنوع الاقتراب!

ثُنَائيَّة الافتقاد والاشتياق

١٧ أبريل ٢٠١٩

قليلة هي الأفلام السينمائية التي أُكملها حتى النهاية، لأني دومًا أبحثُ عن عُمق الرواية...

أدرتُ شاشتي على مِقعد الطائرة، فإذا بي أمام قصة رائعة ومُلهِمة للإنسان حين يعيش في ماضيه وينفصل عن حاضره... أدهشني الممثل المصري «محمود حميدة» بهذا الدور الرائع، لشخص تقاعد مبكرًا لكنه أدرك أنه لم يتقاعد عن العمل فحسب بل عن الحياة... فاستمتعت به حتى النهاية، فقصته تكاد تكون قصة الكثيرين مع غُربة الذات بعد التقاعد مُبكرًا أو متأخرًا .

في أحد أسفاري الطويلة على متْنِ الطائرة، نحَّيتُ الكتاب جانبًا وأدرتُ الشاشة الصغيرة أمام مقعدي، لأجدني أمام الفيلم المصري (فوتو كوبي). من الوهلة الأولى تجدك في رحلة مع آلة الزمن إلى فترة الأبيض والأسود.

بطل الفيلم محمود حميدة (عم محمود)، خمسيني يحبو نحو العتبات الستينية، كان يعمل في مطبعة إحدى الصحف إلى أن قذفت به الحياة بعد خروجه إلى المعاش المبكر، ليفتتح محل تصوير مستندات (فوتوكوبي محمود) في منطقة «عبده باشا» القاهرية العتيقة... ينقلك الفيلم إلى مشهد آخر، حيث يتعاطف عم محمود مع جارته (السِّت صفية)، الخمسينية التي تعيش وحيدة بعد هجرة أولادها، وصراع يومي مع مرض السكري وشبح السرطان، في شقة تعلو محل عم محمود، وفي كل زيارة إلى الصيدلية يكون لها لقاء عابر عن الذكريات والحنين للزمن الجميل تتشاركه مع عم محمود.

قد تبدو الحبكة الدرامية للفيلم عادية، وربما أقل من عادية، ولكن ما حولها من إيقاع بطيء لحياة بين ضفتيّ الافتقاد والاشتياق تجعل المشاهد يتوجَّع لحال عم محمود، وهو يلهث في البحث عن هويته على الكمبيوتر للإجابة عن سؤال محوري: لماذا تنقرض الديناصورات؟ فقد أدرك أنه ديناصور نجا من الاندثار، وبقي يحيا حياة الجمود في غياهب الذكريات بما تحمله من آمال وآلام.

وتجحظ عيناك أمام لافتة محله الباهتة المكتوبة بخط اليد، تعبِّر عن زمنٍ قد ولَّى واندثر، فلم يبقَ منه إلا شعور بأنك حتمًا خارج إطار هذا الزمان... إنه صراع أزمنة متضادة.

يتوجّه عم محمود إلى بيت الرجل الذي كتبها له منذ سنوات طويلة لإصلاحها، فيجده غادر الحياة، فيلتقي بابنه الذي يتعجب من وقوع عم محمود في أَسْر الماضي إلى حدِّ التوحُد والتقادم.

ما أثقل الذات حين يدرك الإنسان أن لُغته وصنعته وعُملته وعُمره وجيله؛ قد غادرتْ وبقي هو وحيدًا كمن نجا بمفرده من باخرة (التايتنك)، ليعيش مرارات غُربة المكان والإنسان والزمان، وقِيم مجتمعية غريبة لم يستطع أن يتعايش معها، وبقي قلبه نابضًا وحالمًا بعفوية الزمن الجميل.

في كل إصباح يزداد عالمنا بأعضاء جُدد ينضمون إلى نادي التقادم والافتقاد والاشتياق بعد غُربتهم في عوالم أقرب إلى انتحار حضاري، وغياب قيمي، وتراجع إنساني، وحضور غيابي، وصقيع بلا شتاء، وقيظ بلا صيف... فطوبى لهم!

في حَضْرة البوح وأنين الذاكرة

٢٦ نوفمبر ٢٠١٧

لم أتخيل نفسي ذات يوم في رحلة جوية لمدة ساعتين كي أصل إلى مدينة يقطنها صديق صدوق ذو قلب جميل كي أزوره لعدة ساعات وأعود في نفس المساء... برغم السويعات التي قضيناها معًا، إلا أن بوح روحه وخلجات أنفاسه وإبحاره في الذكريات والتأملات جعلت الساعات تمضي سريعًا، وتمنيتُ آنذاك لو كنت أملك الوقت لأمضيت عدة أيام في حضرته...

خلال عودتي في الرحلة المسائية في الطائرة كتبتُ هذه الخواطر.

قليلون هم الذين يطلقون العنان لمخزون صدورهم من تراكمات السنين ونُدوب الماضي الأليم وجُروحٍ تأبى أن تندمل... نادرون هم الذين عاشوا تجاربَ أطول من أعمارهم، كما يقول على الطنطاوي: (حياة الإنسان لا تُقاس بطُول السنين، بل بعَرض الأحداث)، وعلى مائدتك يفرشون صفحات العمر،

ويفتحون بوتقةً على جراحهم، يتنفسون الصعداء ثم يعودون لأحزانهم؛ مخطئ من يظنّ أن الراحة بالبوح.

كيف تنجحُ سويعات قليلة باختزال أكثر من ستين عامًا، سويعاتٌ كشفت تفاصيل العيون الواهنة، ولُغز التنهُد والرغبة الجامحة في العُزلة والابتعاد.

إنُّ ما يُبدعه الكاتب في ثنايا السطور، هو عصارة التجارب المؤلمة، وستار جميل يغطِّي بَدَنًا لا يكاد يخلو موضعٌ فيه من النُّدوب وآثار الزلازل والخُطوب، ما تلك إلا ملامح الكاتب التي مرَّتْ على محطات السنين واستقرَّ بها المقام على طبقاتٍ من الحُزن التراكمي المغلَّف برداء الصمت الوقور، فتبقى الذات مُثقلة بالماضي، هائمة تضربُ بقاع الأرض بِخُطاها بحثًا عن الطريق، حتى تجد عنوانها في صرخة الصمت، والاستكفاء والاستغناء المحصَّن بالرضا والحمد والشكر لِرَّب العالمين.

جاءتني صورة صديق صدوق من شواهد الزمن الجميل ونُبل المعدن الأصيل، بعد أن أجرى عملية جراحية صغيرة، فقلتُ لنفسي إن لم تكن زيارة الصديق الآن؛ فمتى تسمح بها طواحين الحياة... وفى طريقي إليه، كنتُ أتساءل: ما السِّرُّ في تأجيل أشغالك وتجاوز أعبائك الثقيلة لتشدَّ الرِّحال إلى أحد روَّاد العطاء، وفرسان النقاء والوفاء ممن لا يزالون مرابطين في حصن الأمل.

نصف يومٍ في معية صديقي الكاتب المبدع متنقلاً معه بين أماكن وذكريات، ستبقى شاهدة على البوح الأمين، سألته: لماذا هذا الحزن الدفين يهز سطورك بالأنين، رغم ما تخفيه في سويدائك عن عالمك؟... تنهد بعُمق: يا صديقي، أرسلتْ السماء أمطارها ومضيتُ برحلتي يتيمًا منذ الصِّغر، غادرنا أبى قبل العاشرة، ومنحتني أمي قلادة الخليفة المتوَّج من بعده، وعلى يديها ولدت أكثر من مرة. حملتني الرياح دون أن أدرى لأودية البشر، تجمَّلتُ وتحمَّلتُ وتألمتُ، وسلَّمني الأمل إلى الصمت، وسؤالي الحائر يلحُّ علي: لماذا يبدع البشر في الشرور والغرور، واغتصاب الحقوق؟... ويكمل صديقي المكلوم: وقد أعرضوا عن بضاعتي... قاطعتُه: دلني عليها سيدي الجميل... باغتني بالجواب: في بيتنا تعلمتُ رباعية الستر والصبر والوفاء والعطاء، وعشتُ حياتي بقِيم أبى وغرس أمي... لكن هيهات من الفكاك من مدارات بعض البشر المتضخمة ذواتهم، المتحجرة قلوبهم والمتكلّسة عقولهم، الذين لم يعودوا لكوكب الأرض منتمين، ولكن في عوالم القنص والاقتناص وركوب الموجات هائمين.

أحاول أن أخرجه من عوالم التأمل العميق في الماضي بآلامه، ليحكي قصته المرتقبة مع المستقبل بآماله، ليأتي الرد: يا صديقي، سأمضي في رحلتي حتى منتهاها متجاوزًا وحْل البشر،

متصالحًا مع الذات، مقاومًا كل إغراءات الانشغال، ومتسلحًا براحة البال والنسيان والاعتزال بعد أن أنهيتُ كل بنود الطموح وبلغتُ الهدف الاستراتيجي الأخير، وأدركتُ أن تجارينا تؤلمنا لكنها تعلِّمنا، وأن التسامح ليس انكسارًا، وأن الصمت ليس هزيمة، بل غذاء للحكمة... يا صديقي، جرِّبْ ألا تحقد ولا تحسد ولا تيأس ولا تشمت ولا تكره. ولهذا، أنأى بنفسي عن دركاتٍ أجهدتني لسنوات حتى أضحت ذاتي أثقل من حياتي.

يا صديقي، منذ بدأت رحلة العودة، وأنا أقرأ كثيرًا، وأتأمل كثيرًا، وأصنع طقوسًا ومناسبات في حياتي كي أفوز بالإياب بعد طول الغياب من طريق التيه الوعرة، لأنجو من نيران اغتيال الطيبة ووأد الأحلام، ولهذا عدتُ، والعود ما أجمله!

«بهاء طاهر»... عِناقٌ مع المنفى

٢٢ أغسطس ٢٠١٧

ما أن نقرأ سيرة الراقي العفوي المرهف الحس «بهاء طاهر»؛ حتى نستشعر ألسنتنا تقول: كلنا هذا الرجل.

أكثر من ثلاثين عامًا أمضيتُها خارج الوطن الأم، سَفرًا وترحالاً، وعودةً وفراقًا، ولقاءً وأشواقًا... وحين قرأتُ لهذا العملاق بهاء طاهر، تجدَّدتْ بداخلي معاني وأماني وتأملات ووقفات... الغُربة منفى، والمنفى غربة، لكنها تصنع منا ما لا ندركه إلا بعد حين.

تغيب عن الإنسان أمورٌ ذات معنى كبير بالنسبة له على الرغم من ضآلتها في عيون مَنْ حوله، فإذا بالأُنس يهجر عالمه، والوحشة تشقُّ طريقها إلى فؤاده، فكيف إن غابَ عنه وطنه؟

يقولون إنَّ مَنْ لا يسكن في وطنه يسكنه وطنه، إلا أنَّ هنالك مَنْ يقبعُ في المنفى ويحمل وطنه وغُربته فوق كتفيه، ورأسه مزدحمٌ بذكرياته، وعيناه تغرورقان عند مرور طيفه، فكلُّ أفراح العالم لا تداوي أتراحه.

في رحلتي إلى كندا مؤخرًا اصطحبتُ بعض الكُتبِ التي بدأتْ تفوح منها رائحة العتاب الصامت الرقيق لأني هجرتُها، حتى أن صَفَحاتها لم تلتمس لي عُذرًا على انشغالاتي وتعدُد أسفاري، فساقتنى إليها عُنوةً ونهَلتْ منِّي ونَهلتُ منها بنَهَمٍ وزخم.

كانت مذكرات «بهاء طاهر... السيرة في المنفى» تتوارى بين تلك الكتب، فاخترتُها رفيقًا يصاحبني لأكثر من سبع ساعات أثناء سفري من لندن إلى مونتريال. بين طيَّات المذكرات سيرة ذاتية فريدة من نوعها، تحمل في جنباتها خبايا لا يعرفها الكثيرون عن الأديب والكاتب والروائي والمترجم «بهاء طاهر»، فـ(الناس لا تبوح بأسرارها للأصدقاء وإنما للغرباء في القطارات أو المقاهي العابرة)، كما يقول الأديب طاهر. وأوّلُ البوح أشده إيلامًا، فأي سيرة تلك التي لا تَنْصبُ في بدايتها تذكارًا للأب والأمِّ بحكايات مفعمة بعبقٍ من مَشاهدِ الماضي تتسرَّب إلى رئتيك فتتنفس حنينًا وتشهق شوقًا.

ثم ينقلنا إلى بيت الزوجية الذي ملأته «ستيفكا» الروسية بذكريات دافئة عبر السنين التي حوت أسرارًا أخرى شقَّت طريقها إلى حياته بشَهدها وعلقمها، عن الغربة أتحدَّث، عن ذلك الغياب الذي سمَّاه أديبنا المبدع «منفى».

خلف ذلك المنفى غصَّة في حلقه ومرارة لا تبارحُ قلبه وقلمه، وذكريات بَنَتْ في داخله مُستعمرة، وسياحة في سجلات

الماضي، وغوصٌ في تفاصيل لم يكن ثمة مفر منها على حد وصفه، ليصبح المنفى تجربة حتميّة قاسية تفرض عليك البعادَ وليس سوى البِعاد.

ثم ينتقل إلى تفاصيله التي شكَّل والده جُزءًا منها؛ الأب الذي يُربِّي ولا يُصادِق - بحسب تعبيره -... أمَّا عن الأُمّ فكلُّ المعاني حبيسة ردهة مُحكمة الإغلاق عصيّة على الخروج، إلا أنه عبَّرَ عنها بكلماته: (لمَّا ماتتْ أُمي، غام الأمل، وشاهت الحياة... كنتُ صبيًا لكني شِختُ، كنتُ نبيًّا وهي وحيي). وبهذا تقع في شِباك أحزانه وتَعلَق بين عناقيد همومه وأنت لا تدري.

لا تملك وأنت في حضرة رائعة سيرة بهاء طاهر إلا أن تقف وتتأمل عباراتٍ خطَّها الأديب متعجِّبًا من ذلك الثّقل الذي تعكسه تلك الكلمات في ذاته وشِدَّة وطأة المنفى على وجدانه وحياته، حتى أتى اليوم الذي انصاع فيه لرغبته وعادَ إلى وطنه، فإذا الحياة التي عرفها رحلت، والأحلام التي طالما راودته تبخرت، فقصر الثقافة في قريته بالصعيد أضحى (خرابة) - على حدِّ قوله - بعد أن تفشَّتْ الآفات المجتمعية في كل مكانٍ وعمَّتْ الأرجاء، فما كان منه إلا أن يقف على الأطلال يبثُّ حسرته وحيرته بين دفتي سيرته الذاتية آسفًا ومتألمًا لعدم استفادة الدولة من كتاب «طه حسين» «مستقبل الثقافة في مصر» عام ١٩٣٧م، وهو الذي يرى أن ما حلَّ بنا مجتمعيًا ما كان ليكون لو أن للثقافة ركنًا

ركينًا في الوجدان المصري وليس قصورًا ثقافية تصدَّعتْ من الكسور والقشور والخلو من المضمون.

من يقرأ سيرة الأديب بهاء طاهر يدرك يقينًا أنه لم يكتب عن المنفى الذي كان، ولكنه نقلنا إلى المنفى الذي عانقه وما زال.

صديقي النبيل: صوتُك أملٌ وحياة

١٢ يوليو ٢٠١٧

لا يمكن أن يحيا إنسانٌ بلا أصدقاء، فالحياة بلا أصدقاء صحراء جرداء.

وفي زمن الجوائح والتباعد المجتمعي تبقى مكالمة صديق صدوق تغنيك عن العالم بأسْره... كم أنا محظوظ حين يهاتفني بعض الأصدقاء لأستشعر بعد المكالمة أنني كنت في نزهة جميلة في بساتين المحبة والوفاء والارتقاء...

حقًا من يملك صديقًا؛ يملك كنزًا.

لا يحتاج المرء إلى باخرة أو قاطرة أو طائرة ليكون في حضرة صوت صديق صادق وصدوق وأمين ونبيل، من شواهد الزمن الجميل. تكفيك دقائق معدودة في مكالمة واحدة لتسترجع طفولتك من خزائن ذاكـرة النسيان، وتستحضر صفحات العمر المنصرم لتجدِّد حياتك وأمانيك بروحٍ وثَّابة خفَّاقة وسط طواحين الحياة وصخب المدائن بحثًا عن لحظة هدوء وأمان بعد أن تصدَّعتْ بعض لبنات بنيانك، وأصابتك نيران صديقة

في صيف قائظ.

مكالمة واحدة كافية بأن تشعرك بوجودك المفتقد بعد طول ترحالك وغيابك، لتبدِّل غربتك وأوجاعك إلى نشوة وليد يحبو للمرة الأولى، حتى تحار كلماتك المحدودة في وصف سحرها وأثرها على ذاتك وروحك، وشهيقك الإيجابي وزفيرك المضطرب من فرط سعادتك القلبية.

مكالمة واحدة تكفيك بأن تكتشف أن هناك معادن لا تُقدَّر بكنوز الأرض مجتمعة، ممن يعيشون معنا وفينا رغم بُعد المسافات وطول ما بيننا من أنهار وبحار ومحيطات بل ومجرات، ولكن دفء مودتهم ونقاء سريرتهم ونبض محبتهم تمنحك اِكتفاءً واِحتواءً وخيالاً خصبًا يجعلك تنتظر وبشغف لقاءهم المرتقب، لأنهم العيد في حياتك.

مكالمة واحدة كافية بأن تُجري مدامعك الحارَّة المتدفقة فرحًا وطربًا، وتلامس قلبك وتمسح على رأسك وتنتزع عبوس وجهك لتزرع ابتسامة امتنان واطمئنان وفرح يهز أركانك، وكأنك تُولد من جديد بعد أن أدمتْ قدماك الأشواك وأتعبتك الدروب وأثقلتك الخطوب وأوجعتك غُربة قِيمك بعد أن تبدَّل الحال وحلَّتْ القشور وأقوال الزور محل صحائف معرفتك ويقين علمك وعين بصيرتك.

مكالمة واحدة تُعتبر بمثابة خزائن سماوية تفتح لك أشعة أرضية ينفذ من خلالها النور نحو قلبك الواهن، لتنتقل من غياهب غيابك عن ذاتك إلى حضورك الآسر مع حياتك، وكأنك قد ارتشفتَ إكسير الحياة ولسان حالك: كم هي ساحرة تلك المكالمة العابِرة، كم هي آسرة تلك الوجبة الوجدانية الصادقة بلا إضافات صناعية للون أو لطعم، لأنها من أعماق القلوب النابضة عطاءً ونقاءً وتجردًا وزُهدًا.

شكرًا صديقي النبيل الأمين الجميل... مكالمتك حقًا كانت وما زالت أملاً وحياة.

أثقل من الذات

٩ أبريل ٢٠١٧

أحيانًا أكون حاضرًا في اجتماعات مهنية أو اجتماعية، وألوذُ بصمتي وسط الحضور... أحيانًا أستشعر أنني ثقيلٌ على ذاتي.

إن تحدَّثتَ يقاطعون حديثك، وإن صَمَتَّ يستهجنون صمتك، وإن نقلتَ بعض ما لديك من معارف وعلوم؛ يستنكرون أو يجادلون وكأنك في سباق بين من لا يعرف ولا يريد أن يعرف.

ما إن يأتي الحديث عن القشور والتوافه والموديلات وكل ما هو فان؛ يأتي الإصغاء والمناقشة ويحتدُّ الحديث... وإن أتى الحديث إلى الثوابت والنوابت والعلوم تجد الصوت خافتًا وكأنك تحدِّث نفسك.

قد تجد نفسك منسابًا مع لحظات الخاطر، وكأن ذاتك المثقَلة تستصرخك، وشيئًا من الغصة في الحلق يوجعك ويدفعك نحو ثورة هي بحق ثروة لميلاد جديد، وقد عزمتَ

بيقين ومثابرة لا تلين نحو الإياب الجميل في واحاتٍ متجدِّدة وواعدة، والخضوع لجلسة مواجهة ومكاشفة وِديّة هي أقرب للعتاب والبوح الصامت الراقي الأمين، وتأمُل في محطات العمر الممتد، بعد طول غياب بين سَفرٍ وضجيجِ بشر، لتدرك كم أنت حقًا أثقل من ذاتك.

أثقل من الذات... حين تقترب خطاك من أعتاب الخمسين والستين، وتظنُّ في العمر متسعًا لما رسمتَه في سؤددِ شبابك وسياحة أحلامك من هِضاب الطموحات وتِلال الإنجازات، لتُدرك ضيق حدودك الزمانية وإمكانياتك البدنية والذهنية وحواجز المجتمع ومنافى البشر، ورغم الطوفان الذي يفتعله مَن حول مَركِبك ليَحُولُوا دون إبحارك لوجهتك، فإنك تصرّ على التجديف غاضًّا الطرف عن ظنون وهمسات أنك تصنع مِن أنت أكبر مما أنت؛ حين لا تستمع بملء الوجدان والآذان قول من يعلم السر وأخفى: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» [البقرة: ٢٨٦]... آنذاك تدرك كم أنتَ حقًا أثقل من ذاتك.

أثقل من الذات... حينما لا تتوقف المُقَل عن تتبُع السطور وطي الصفحات والمؤلفات؛ حين ترتشف من ترياق الإيجابية والتفاؤل والعفوية والقِيم الإنسانية المشتركة، فتحلم وترسم ما يطغى على الوجود، ويعلو على الإنسانية ويتجاوز حدودنا الكونية، وتراهن على الكامن فيك وفيمن حولك من رُفقاءِ دربك

المهني والحياتي، بينما بعض أصحاب النفوس الواهية تضيق بأفكارك الحالمة الراقية، فليس في قلوبهم مثقال ذرة مما يُثقلك ويشغلك لسعادة الدارين... آنذاك تدرك كم أنت حقًا أثقل من ذاتك.

أثقل من الذات... حين يُغدق الله عليك من نِعَمه وتحيا سنواتٍ في مجتمعاتٍ متسامحة مترابطة، أرواحها متآلفة متواضعة، ونيَّاتها متكاشفة وسواعدها متعاونة، تجول بين شواطئ العالم المعرفي، وقد أَسرَك البحث المستمر عن مواطن التميز والإبداع، ولا تبرح محراب التتلمذ بشغف ممتد، وشوق ليس له حدّ لتتعلم المزيد؛ إلا أن سراب الوهم يلوح لك حين تفكِّر بالانتقال لمجتمعات أخرى استغرقتها الخصومة والتناحر واستوطنها التباغض والتحاسد والتداعي، وأرَّقها التخلي عن الراحة والجِدِّية والهِمَّة والموضوعية في البناء والتطوير والتعايش، فأسعدها التسويف وغرَّتْها النرجسية، شحيحة في العطاء والنماء، توَّاقة إلى الاكتناز بامتياز... آنذاك تدرك كم أنت حقًا أثقل من ذاتك.

أثقل من الذات... حين يتملكك تمكين الآخر، ولا تنفكّ تَسعَدُ بمُضيِّهم قُدُمًا وارتقائهم ظافرين، ولا تملّ تُسجي عليهم من واحات خِبرتك وتختصر لهم من عصارات تجربتك مسافات شاسعة اجتزتَها بماء العين وشجون القلب؛ فلا يلقون لها بالاً،

ويسلكون طريق العادة التي طالما جرَّتْ عليهم خسرانًا ووبالاً، وكلما لوَّحتَ لهم عَلَّهُم ينتبهون لعلامات الخطر، أو تشاركتَ خيرية مستدامة معهم ليوم المقر، عَميت بصيرتهم وصُمّت آذانهم، وقالوا: ما بالُ فلان يهذي؟! أنفعًا يستجدي، أم جاهًا وسلطانًا ومالاً ومغَانم يَبغِي؟!... آنذاك تدرك كم أنت حقًا أثقل من ذاتك.

أثقل من الذات... حين تأخذك الظنون أن سبيلك لحمل رسالتك في رحلتك القصيرة الزائلة، أن تُرخي حبال الشوق والوصال مع رِفاق الدَّرب، وتستنشق عبير وِدَّهم، حين تغلِّفك أشغالك وضيق وقتك بِسِمَة الجمود وجفاف الروح والتيه، وتفقد قدرتك على التربيت على جراح من حولك؛ لتجدك وحيدًا، فتلتحف بدفء مناجاة ربِّ السماء والعيش في ساحات الرضا والاكتفاء واليقين والاستغناء، والارتواء من سلسبيل سقياها حروف وصال مع الكريم المتعال، ونبضات قلب معلقة بتسابيح أولى الألباب، بعد اكتشاف كنز الوجود في كتابٍ فُصِّلتْ آياته، والسكن بقرب نفحات النبي العدنان... آنذاك تدرك أنك أُعتِقتَ من ثقل ذاتك، ووُلِدتَ من جديد، وأن الأجمل لم يبدأ بعد، بشوقٍ إلى الأبقى المستدام وليس العابر بلا دوام.

أُمي و صورتي و العيد

٢٠ مارس ٢٠١٧

أثناء زيارة خاصة لأمي، فاجأتنْي بأنها تحتفظ لي بصورة خاصة، أطلعتني عليها، لم أكن أتذكرها ولم يكن لدى نسخة منها، كانت صورتي وأنا في المرحلة الابتدائية... جلستْ تحكي لي ذكريات غابت لكنها بقيت لدى قلب الأم النابض وعقلها الواعي.

ألهمني هذا الحديث أن أكتب خاطرتي عن صورتي، خاصة أن زيارتي تلك كانت في عيد الأم.

ما أجمل من أُمٍّ تحتفظ بكل جزءٍ فيك وعنك أينما كُنتَ أنت هنا أو هناك.

في يوم عيدكِ أمي، تسألُني صورتي المعلَّقة في بيتك والساكنة في قلبك، كما سألت الراحل محمود درويش، أأنتَ ما زلت أنتَ أم أنتَ لم تعد أنتَ؟ كم أنت أنت، ولا تشبه أنت؟

لماذا أنتَ الغائب دائمًا؟ صاحب الحقائب دائمًا؟ ما إن يحطّ بك الرِّحال إلا ويشده آخر؟! أأنت انتظارٌ أم حِلٌّ وترحال؟! أأنت

البراءة بعينها، أم الخبرة بآلامها؟! أأنت مشروع حضور أم عنوان غياب؟

لماذا ارتضيتَ صُحبة الغُرباء، وارتضيت أحضان أُمٍ لم تولد من رحمها؟!

وأنا أجيب: يا صورتي، حملني الطريق دون أن أدري، وسكنتني الغُربة وسكنتُها دون أن أختار... آه يا صورتي لو تعرفين كم هي قاسية غُربة الأسفار، وكيف تكون ليالي الشتاء الطويل والبرد والصقيع بعيدًا عن أحضان أمي الدافئة الآمنة؟

يا صورتي: مع كل رحلة عودة وبعد كل عودة رحلة؛ يتجدَّد الحُلم، ثم تبدأ من جديد أسفاري وترحالي، لأكون الحاضر رغم الغياب.

لم أعد أعرف هل أنتِ كما أنتِ؟ أم أنكِ لست صورتي؟ أبحث في بقاياكِ وأسأل ما تبقَّى منكِ ولم يأكله تعاقب السنين، علَّني أجد الجواب... ولدتني أمي من رحِمها ذات مساء، وفي الإصباح حملتني الرياح العاتية، وألقتْ بي في مفترق الدروب، وأوجعتني شواهد الترحال وجراح الأيام وصنائع البشر وأشباه البشر، واليوم أقف أسيرًا وحائرًا وثائرًا ولا زلت مسافرًا.

تسألني صورتي من جديد وفي حُزنٍ شديد: أين صلواتك؟ ابتهالاتك في الفجر والسَّحر؟ أين وترياتك؟ أين حبَّاتُ التسابيح

مع الإشراق، رفقة الحجاج والمعتمرين في مسالك العارفين؟

أين وألف أين تهزني حين تقول لي صورتي: يا صاحبي هل احتميتَ بدثار الغرباء، وأعجبتك الرحلة؟ لماذا أنت لم تعد أنت؟

وأنا أجيب بدمعٍ غزيرٍ وصمتٍ طويلٍ ونَفَسٍ حبيس: يا صورتي، كانت عيني ترقبُ الأرض والأخرى نحو السماء ترى أحلامي مع السحاب، فأخذتني ريـاحٌ عمياء ووعدتني أملاً ومجدًا، اليوم وجدتُه سرابًا وكمدًا... ولكني ما زلت في السِّباق حيًّا، عازمًا على اللحاق، مشتاقًا وتوَّاقًا إلى وجه أمي وقَلْبِ أمي وصوت أمي... يحدوني الأمل... ما زلتُ أرقب ضفة النهر، وأغازلُ ماء النهر، وأحلم بأن يأخذني إلى الغدير الصافي هناك وأُعانِق الغمام... من يدري يا صورتي، فقد أعود يومًا، قد يحتويني الغدير بعد طول سَفَرٍ وفراقٍ وغُربةٍ واشتياق.

يا صورتي: ما زلتُ أراهن على مراكبي، أشرعتي، على قاربي المثقل المتعَب... رغم الشطآن المهجورة والآلام المغمورة والأرض اليباب وافتقاد الأحباب... يبقى الأمل بعد كل ألمٍ لأن الميم حتما للاَّم سابقة... لقد سابقتُ الزمن، وسبقني، ولكن ما زال للقَدر كلمته... ورغم الغياب سيبقى دعاء ورجاء أمي في وِصال، والقمر مراقبٌ والنجوم حنايا، ومِداد كلماتي لن ينقطع على مَرِّ الأيام.

يا صورتي: دعيني أُلقي عليك قول الفصل المبين، وقالها مِنْ قَبْل «أبو تمام»... لا أنت أنت ولا الديار هي الديار.

يا صورتي: الغائبان في يوم عيد أمي أنا وأنتِ... أنتِ في بيت أمي، وأنا غريبٌ في بيتٍ بين الشطآن... طوبى للغرباء.

يا صورتي: في عيد أمي؛ أفصحي لها عن شوقي ولهفتي، عن حُبي ومودتي، كوني البوح والوعد والميعاد والذكرى والأمل والعودة واللقاء بعد طول افتقاد، اهجري صمتك الأبدي ومع كل إصباح ذكِّري أمي بأن عيدك في القلب أخضر وحاضر رغم غيابي، وأن ميلادي وعنواني ومكاني سيظل دائمًا عنوانك أماه رغم ترحالي... اجعليها قولاً واحدًا: عيدك أنتِ أمي هو عيدي، لأنكِ أصل وجودي وصدى أشواقي وشذا عمري وعبق حياتي ونور دربي وحروف هويتي ونبض قلبي وقلمي...

كل عيد يا أمي وأنتِ العيد.

أدبُ القاصِدين

١٩ مايو ٢٠١٦

ماذا أقول وما لا أقول عن «طِيبة» الطيَبة؟!

برغم ما كتبتُ من مقالات وخواطر وتأملات، لكني أشعر أن «طيبة» تسكنني، وليتني أسكنها لأكونَ في جوار خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم.

في طيبة استمع لآيات الله وكأنها للتوِّ نزلتْ وحيًّا على رسول الله.

في طيبة تدرك يقينًا حين تعامل أهلها أنك مهما فعلتَ من خير، مهما قدَّمتَ من بِرٍّ، مهما كنتَ على خُلقٍ حسن؛ فهم سابقوك وسبقوك.

ألا ليت طيبة هي المقر... ألا ليت هناك المستقر.

ما إن تُيمِّم وجهَكَ قاصدًا الحرمَيْن الشريفَيْن؛ حتى تبدأ دقاتُ قلبِك بعزف أعذبِ الألحان، ويداعبُ روحَك سرورٌ خفيٌّ تجهل كُنهه وتعجبُ كيف تَشكَّل في داخلك؟!

أسفارٌ تجوبُ بك شتَّى بقاعِ المعمورةِ، إلا أنَّ وقعَ هذا المكان عليك مختلفٌ، بعظيم هيبَتِهِ وعُمْقِ رسالتِه وطِيبِ صُحبَتِه ونفحاتٍ ربانيَّة تسكن في أرجائه... يرتفعُ مؤشِّر هِمَّتك في رحاب الحرمَيْن بوقودِ الحُبِّ لتُساهم بجهدٍ متواضعٍ ولَبِناتٍ معرفيَّة تتشاركُها مع سُفراء الخدماتِ في أطهر بقاع الأرضِ... يتردَّد حديثُ الذات ولا ينقطع طيلةَ الرحلة بداخلك أنْ مهما قدَّمتَ وأقدَمْتَ يبقَى عنوانك أنت أيها القادمُ هو التقصيرُ والقصورُ، وعنوانهم البيتُ المعمورُ الذي لا يزولُ على مدار كل الأزمنةِ والعصورِ، فلا يَغُرَّنَّك صنيعُك مهما أبدعتَ، ولا يَفتِنَنَّك عِلمُك مهما بلغتَ.

يا لِطِيب اللقاء مع الفُضلاء نُسَّاكِ خدمة المسجدِ النبويِّ في مدينة خيرِ الأنامِ، إذ تملؤُكَ البهجةُ لرؤياهُم والشغفُ يسكن اللحظات التي تقضيها بصُحبتهم، صدورُهم كديارهم رحبةٌ، وقلوبهم كأرضهم مُحِبَّة، وأرواحُهم كطِيب مدينتهم طيبة. كيف لا وهم أحبابُ دار الإيمان والهجرة، وجيرانُ المنبرِ والروضة، إلى رحابِهم يهفُو كلُّ قلبٍ رقيق.

إنه لوسامٌ يلمعُ على صدركَ أن تكون من الزُّوارِ الذين تشرَّفوا بالمكان، وصحبوا ثُلَّةً من أعلام الإسلام، ليضُمَّكم جميعًا بساطُ «التميُّز القيادي»، ترومون تقديم خدماتٍ جليلةٍ، ترتقي إلى رسالة المدينةِ المباركةِ، تُبحرون فيها خلال ثلاثةِ أيامٍ، لا

تشعرون كيف تسرَّبت لحظاتها من فوهة الزمن. وإذْ بكَ تفارق خيرَ الرفقاء، وخيرَ البقاع، وإذا بيديكَ تلوِّح بالوداع، وتلهجُ ألسنتُهم بالدعاء، وتترجمُ دموعُك منتهَى الحبِّ ولوعة الشوق حين تخذلُكَ الكلماتُ في دقائق المغادرةِ الأخيرةِ على أرض مطار المدينة، وحديثُ خير الأنام يتردَّد صداهُ في سُوَيْدائِكَ: (والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون).

ويظلُّ السؤالُ حاضرًا في كل لقاءٍ: لماذا ترحل يا عاشقًا للمكانِ وأنت تعلم بأن الخير كلَّ الخير في البقاء والجوارِ والمقام؟!... آه لو تتوقَّف الأيام!!

تغيبُ و«طيبةُ» في فؤادك لا تغيبُ، سَلْوَاكَ أن مهبطَ الوحي هي محطتُك التالية. تدخلُ «أم القرَى» مُحرِمًا ضمن رحلة النفحاتِ الربانية، ومُعلِّما أدبيات التمكين والتطوير لأُمناءِ الحرم المكيِّ المَعنيِّين بخدمةِ ضيوفِ الرحمن حُجاجًا ومعتمرين وزائرين، وبذلك تنال شَرفَ صُحبَتهم وطِيبَ معيَّتهم لثلاثةِ أيامٍ متتابعات، يحتويكَ فيها الحَرَمُ المكيُّ، ويمنحك الأوفياءُ فرصةَ زيارةٍ لا تُنسَى لمعرض عِمارة الحرمَيْن؛ لترى بعينيك تاريخًا ممتدًّا في البناء والعمارة لبيت الله الذي تهفو إليه الأفئدةُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ. وتكتمل فرحتُك حينما تحِلُّ ضيفًا في مشروع تعظيمِ البلدِ الحرامِ، لترى وتستمع بإبهارٍ إلى ما يُجري مدامِعَك من مآقيها عن تأصيل التعظيمِ، وثوابت ومنطلقاتِ رسالةِ

التوحيدِ من عالِمٍ جليلٍ، علَّامة في التبيان، وقدوةٍ في البيانِ، ربانيِّ الرؤية، سماويِّ التكوين، حضاريِّ الإعمار بقِيَم الأولين المُحتَسبين؛ تستصغرُ بجانبه شأنَكَ مهما بلغتَ، وتعيد معه النظرَ إلى رسالتكَ الحياتيةِ، وتتوقَّف من جديدٍ أمام جداريةِ رؤيتِكَ وما تبقَّى من سنوات عمرك القصير حتى يحلَّ الأجلُ بلا تأخيرٍ أو تبكيرٍ.

في كَنَف أُمناءِ البيتِ العتيقِ؛ يأسِرُكَ مشهدُ هِمَّةٍ وعزيمةِ سعي أُولي الأمر الدؤوبِ نحو التطويرِ والتحديثِ، ليكون الموعد ٢٠٣٠ حيث الإمكانات فاعلةٌ والاستعدادات حاضرةٌ لخدمة نحو ٣٠ مليون مُعتمرٍ وفقَ أفضل وأرقَى مستوياتِ الخدماتِ التي رسَّختها رؤية المملكة الطموحة ٢٠٣٠؛ أولو الأمر الذين أبرموا سِباقًا مع الزمن من أجل واقعيَّةِ الرؤيةِ ويقينيَّةِ الغايةِ ونجاعةِ الوسيلةِ.

اليوم تأتيك شواهدُ عينِ اليقين؛ بأنَّ قطار الاستراتيجية الريادية للحرمَيْن الشريفَيْن انطلقَ من مكة المباركة على خُطى التحوُّل المؤسسيِّ مُدّتها خمسُ سنواتٍ بحسب خارطةِ طريقٍ تُناغم في الدربِ المظلة الأشمل لوطنِ الطُمُوح والرُؤَى الواعدةِ، وبشراكةٍ مستدامةٍ مع رُفقاء النجاح تقيسُ وتتابعُ وترصدُ النتائجَ والإنجازاتِ.

ما أجمل أن تقرأَ في أدبِ القاصدين بعُمقٍ ورَويَّةٍ، لتتعرَّفَ على توقُّعاتهم وطموحاتهم، وصولاً إلى إسعادِهم وإثراءِ تجربتِهم بسواعدَ واحتسابِ وإتقانِ سفراءِ الحرمَيْن؛ لتكون تجربةُ ضيوفِ الرحمنِ روحانيَّةً متفرِّدة، وثقافيَّةً متجدِّدةً، وتراثيَّةً متأصلةً، وحضاريةً معرفيَّةً، من خلال صناعةٍ ينتهجُها أولو العزمِ والحزمِ والحسمِ.

هـذا بعضٌ مما تقطَّر من رحيق القلم في أدب صناعةِ طموحاتِ القاصدين.

في جَوفِ الكعبة

١٢ نوفمبر ٢٠١٥

ما حييتُ مِنَ العُمر لن أنسَ هذا اليوم، ولن أنسَ فضل الفُضلاء بعد الله ممن أهدوني تلك الدعوة لأكون في جوف الكعبة، وأنال شرف المشاركة في غسل الكعبة من الداخل.

حتى هذه اللحظة لم أستطع بعد أن أُلملم حروفي وشتاتَ أفكاري حين أمضيتُ أكثر من عشر دقائق داخل الكعبة مُصليًا راجيًا متأملاً مستحضرًا.

مقالي التالي هو غيضٌ من فيض مما استطعتُ تدوينه ذاك اليوم...

تجربة لا زالت تسكنني، وتسكن السكينة روحي كلما عاودت ذِكراها.

منذ أن منَّ الله علينا بالدعوة الكريمة من الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام لأتشرَّف بحضور غسل الكعبة لهذا العام، وأنا في شوقٍ وشغفٍ لخوض هذه التجربة الفريدة.

سِرتُ قُبيل بزوغ الفجر بساعاتٍ قليلة مِنْ مدينة «جدَّة» إلى «أُمّ القُرى» والروح تُسابِقُ الجسد، والنبضُ يتسارَع كلما اقتربتُ من مشارفِ الدِّيار المُقدَّسة.

وأنت في الطريق، تتداخل أمام عينيك صِورُ ومحطاتُ رِحلتك الأرضية ودروبك الممتدة مُسافِرًا مرتحلاً، وفي عالم الروح القدسي؛ يستنفر خيالك طاقته عما يحتويه بيت الله الحرام، وقِبلةُ المسلمين منذ رُفعتْ قواعدها، ومهوى الأفئدة منذ سمعتْ نداء الخليل، وتسأل ذاتك: أحقًا ستكون في قلبها ومحور ارتكازها؟! كيف ستظل نابضًا حيًّا دون أن يتوقف الزمن وتُفقدك الدهشة الكلمات، وتتباعد بينك وبين مقصدك المسافات؟ أن تكون في قلب المُنى ولُبِّ قِبلة السماء!... تلك مشاعر لا تسعها الحروفُ مهما رُتِّبتْ، ولا تعبِّر عنها الكلمات مهما سُطِّرتْ، ولا تترجمها الأقلامُ مهما أبدعتْ.

أخذتني ذاكرتي إلى أول لحظة وقع فيها نظري على الكعبة، وقفتُ حينها واجمًا، ساكنًا، مرتجفًا، تنساب من عيني العَبَرات وقد بِتُّ لا أرى من المكان وما يحتويه من الزِّحام إلا الطلَّة البهيّة الآسِرة التي تهفو لها القلوب وتقصدها من كل فَجٍّ عميق، واليوم ها هي العين والروح والفؤاد في أرجائها حاضرة، في لحظات ستغيب فيها كل فنون القول وتشتعل الشجون. تتناثر بين جوانحي أسئلة تحكي لهفة هذا المسافر المشتاق للإبحار

داخل البيت المعمور؛ ترى ماذا يحتوي هذا البيت؟ في أي رُكنٍ سأفوز بالركوع والسجود؟ إلى أي الاتجاهات سأتجه وأنا في قلب القِبلة؟ كيف هي أرضية وأعمدة وجدران وسقف هذا البيت العتيق؟ هل سأصلي في مكان صلَّى فيه سيد البشرية صلى الله عليه وسلم؟...

أسئلة عديدة ألحَّتْ عليَّ طيلةَ الطريق من «جدة» إلى «مكة» وكأنها المرة الأولى التي أزور فيها هذه البقعة المقدَّسة من الأرض. حين تأخذنا أقدامنا إلى بيوت الكُرماء؛ يجودون علينا بكل ما لديهم من حُسن الوفادة والترحاب، فما بالك حين تكون في حضرة أطهر البيوت، صاحبه الكريم الودود، رافع السماء بلا عمد، ملك الملوك، رب العرش العظيم واليوم الموعود... عن أي ضيافة تتحدث؟! وأي احتواء يتملّكك؟! وأي روحانية تأسرك؟!... إنها وبحقّ لحظات يغادرك فيها كل شيء ليكون الخشوع والذهول فقط هو حال ذاتك وفِكرك.

ما إن تطأ قدماك أرضية الكعبة المشرفة، حتى تهِبُّ عليك رياحٌ طيبة، هي عبارة عن مزيجٍ من المِسك والعُودِ والعنبر يُستخدم في تبخيرها، وتستشعر أنك الواقف الجالس، الضاحك الباكي، الساكن المرتجِف، تتداخل كل مشاعرك، تخونك كل حروفك، تتوارد كل شجونك.

يصحبُك مضيفك إلى الداخل، ويعرِّفك على ثُريات «عبد الله بن الزبير» رضي الله عنه التي أُهديتْ له ووُضِعتْ داخل الكعبة، وهي لا تزال على حالها منذ ذلك العهد.

وتسأل في أي اتجاهٍ تصلّي، فيأتيك الجواب أن الاتجاهات والأركان الأربعة كلها قِبلة، فَوَلِّ وَجْهَكَ أينما شئت...

تقف بُرهةً لتستوعب الإجابة، ثم تتذكر لحظة دخول المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة بعد فتحها وتطهيرها من الأوثان، فتجد نفسك تقتفي خُطى الحبيب وموضع صلاته، لعلَّ جبهتك أو جزءًا من جسدك يلامس أرضًا لامسها الجسدُ الشريف، فما أَجَلّه من شرف، وما أعظمه من فضل...

ويحتويك اللون الأخضر من كل جانب من خلال ستائر حريرية خضراء، تعلو لتغطي السقف، ويتوسّط البقعة المباركة ثلاثة أعمدة مرصوصة في صف واحد من الشمال إلى الجنوب، مع أرضية رخامية بيضاء، تميِّزها رخامة واحدة مختلفة؛ تحدِّد مصلى نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم...

ثم تقف متأملاً بابًا نُقشت عليه آيات التوبة، يؤدي إلى سقف الكعبة المشرفة، وتلتفتْ، فترى لوحاتٍ خُتِمتْ بأسماء خُلفاء وسلاطين المسلمين عبر العصور، مِمَنْ قاموا بعِمارة وتجديد البيت المعمور.

استحضرتُ كل من وصَّانا بالدعاء، وكل من له في عنقنا حقوق، ودعوتُ الله أن يكونوا رُفقاء دار المقر كما كانوا في دار الممر.

تتمنى لو يطول بك المقام وألا تغادر أبدًا، ولكن دَقَّتْ لحظة الرحيل، لأن جموع الوفود الذين تمَّتْ دعوتهم من أنحاء الأرض ممن كتب الله لهم هذا الشرف ينتظرون أيضًا في شوق لينالوا لَذَّة الصلاة والدعاء في جوفها.

تدمع عيناك عند وداع حضن الكعبة المشرفة، وتخرج تاركًا بين جنباتها روحك معلَّقة بين ثرياها؛ وتخرج ونظرك يمتد بعيدًا في السماء بإحساس لن تُفلح الكلمات في وصفه مهما حاولت، لتستقبلك تلك الساعة الشاهقة قائلة لك (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، وتردِّد معها وهي تعرض لك أجلَّ العبارات (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)، ثم تسدل جفونك على خاتمة جميلة (سبحان الله وبحمده) ودعاء عظيم (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار).

لا زلتُ عاجزًا عن وصف مشاعري داخل الكعبة، تلك المشاعر التي تثير العَبَرات والأشواق كلما استحضرتُ المشهد، ولكن تبقى الرهبة والتأمل مع الصلاة والحمد والثناء والدعاء أن يكتب لنا عز وجل توفيقًا أرضيًا مرْضيًّا، لنعمل نحو رسالة سماوية بيقين المؤمنين حتى نلقى وجهه الكريم.

وستظل كلماتي عاجزة...

وأخر دعوانا ما قاله ربنا عز وجل على لسان الخليل عليه السلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنا ﴾ [إبراهيم-٣٥].

المؤلف في سطور

- الدكتور عماد الدين حسين
- حاصل على الدكتوراه في الإدارة الدولية من كلية الإدارة الدولية بنيويورك (International School of Management-ISM)
- حاصل على الماجستير في التحكيم التجاري وبدائل تسوية المنازعات (ADR) من جامعة لندن، كلية كوين ماري (Queen Mary College)
- زميل معهد المحكمين المعتمد (FCIArb) في بريطانيا
- وسيط دولي معتمد من مركز التسوية الفاعلة للمنازعات (CEDR) في لندن ومعهد سنغافورة الدولي للوساطة (SIMI)
- المستشار العلمي للمؤتمر الأول للوساطة التجارية بالمملكة العربية السعودية
- عضو معهد قانون الأعمال الدولي بغرفة التجارة الدولية (ICC) باريس
- عضو مجلس الإشراف الدولي بمركز التحكيم لمنظمة التعاون الإسلامي (OIC-AC)
- مدرب معتمد لدى معهد المحكمين لتدريب المحكمين والوسطاء (AFL-CIArb)
- عضو بالعديد من الجمعيات المهنية الدولية المعنية بالتحكيم التجاري والوساطة وتسوية المنازعات والتطوير والتميُّز المؤسسي.
- المؤسس والرئيس التنفيذي لماسترز إنترناشيونال للاستشارات (CMI) بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ عام ٢٠٠٩، أحد بيوت الخبرة القانونية والإدارية المتخصصة في الاستشارات

القانونية وحلول وآليات تسوية المنازعات والوساطة والتحكيم والترجمة القانونية والتطوير المؤسسي والتدريب.

- تم ترشيحه وتعيينه رئيس هيئة ومحكّمًا فردًا وعضو هيئة في العديد من المنازعات والدعاوى التحكيمية المؤسسية والتحكيم الحُر (Ad-hoc Arbitration) وفي طلبات الوساطة في مجالات عقود المقاولات والإنشاءات والتوريدات والخدمات والشراكات التجارية، واتفاقيات البيع والشراء العقاري، وعقود الاستثمار والإعلام والترفيه والرياضة والرعاية، وعقود التموين والإعاشة والصيانة وسلاسل التوريد وتكنولوجيا المعلومات.
- محكّم مستقل (Independent Arbitrator) ومعتمد في قائمة المحكّمين في محكمة التحكيم التابعة لغرفة التجارة الدولية (ICC)، ومركز أبو ظبي للتوفيق والتحكيم التجاري (ADCCAC)، ومركز دبي للتحكيم الدولي (DIAC)، ومركز التحكيم بمركز دبي المالي العالمي (DIFC-LCIA)، ومركز تحكيم سوق أبو ظبي العالمي (ADGMAC)، ومركز القاهرة الإقليمي للتحكيم التجاري الدولي (CRCICA)، ومركز الشارقة للتحكيم التجاري الدولي (TAHKEEM)، والمركز الإسلامي الدولي للصلح والتحكيم (IICRA)، والمركز السعودي للتحكيم التجاري (SCCA).
- وسيط ممارس ومعتمد (Listed Mediator) في قائمة الوسطاء لدى كل من مركز تحكيم سوق أبو ظبي العالمي (ADGMAC)، والمركز الإسلامي للصلح والتحكيم (IICRA)، ومركز تسوية منازعات المستثمرين (IDSC)، والمركز السعودي للتحكيم التجاري (SCCA).
- مستشار قانوني ومدرب متخصص في التحكيم والوساطة والاستشارات القانونية وصياغة العقود ومشاريع إعداد وتحديث قواعد التحكيم والوساطة لدى المؤسسات والمراكز التحكيمية، وقام بإعداد وتصميم وتنفيذ برامج تدريبية وورش عمل للمحكّمين

والوسطاء والمصلحين والموفقين والمستشارين والمحامين والممارسين في مجالات بدائل تسوية المنازعات في دولة الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، والكويت، كما قام بالعمل مع اللجان العلمية في الأعمال التحضيرية لمؤتمرات الوساطة.

- باحث وكاتب ومتحدث ومحاضر في موضوعات ومسائل التحكيم التجاري الدولي والوساطة والمصالحة، وتنافسية مقرات التحكيم والإصلاحات التشريعية والقضائية، وبناء القدرات المؤسسية لمراكز ومؤسسات التحكيم والوساطة، وكذلك إعداد وتقديم بحوث ومقالات في العدالة متعددة الأبواب واستشراف المستقبل وتكنولوجيا القانون والذكاء الاصطناعي في العمل القانوني، وغيرها من الموضوعات المرتبطة ببدائل تسوية المنازعات.
- صدر له :

- في حنايا الذاكرة: مقالات. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٢
- قبل أن يرتد طرفك: مقالات. الدار العربية للعلوم والنشر، الشارقة ٢٠٢٢
- رحلات وتأملات: توثيق لرحلات وأسفار ووقفات. الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٧
- مشاهد من الوطن رقم (١): تأملات في الريادة الإماراتية. وزارة الثقافة وتنمية المعرفة، أبو ظبي ٢٠١٦
- زايد و التميز: سيرة المؤسس زايد من منظور التميز المؤسسي. الأرشيف الوطني بوزارة شؤون الرئاسة، أبو ظبي ٢٠١٦

- البريد الإلكتروني: emadkna@gmail.com
- الموقع الإلكتروني: www.dremadhussein.com
- حساب اللينكد إن:

www.linkedin.com/in/emad-hussein

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net